



تصلدها رابطة العالم الإسلامي
مكة المكرمة

نظرات في قصص القرآن

٣

محمد قطب عبد الوعال

السنة الحادية عشرة - العدد ١٢٢ - صفر ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما
أوحينا إليك هذا القرآن ..﴾

(صدق الله العظيم)

مقدمة

القصة في القرآن الكريم على جانب كبير من الأهمية ، فهي قالب تربوي وإعلامي تنفذ من خلاله الدعوة إلى القلوب فتحزها وإلى النفوس فتفضيها نفضاً . ومن ثم فهي تثير العواطف والوجدان ، وتجذب النفس وتبهيء العقل وترسم الطريق وتحدد النهج .

والقصة في القرآن تساق لإبراز هدف ديني وتوضيح غرض من أغراض العقيدة ، إذ أنها تنطلق من منطلق ديني بحث . ومع ذلك فقد وفّت بمتطلبات الفن القصصي وتضمنت خصائصه وعناصره وأنواعه وتنوع ملامحه .. وجاء ذلك وفق طريقته الخاصة ، ووفق المنهج القرآني في إيراد القصص .

فالقصة في القرآن تتوزع على السور القرآنية بحيث ترتبط بالغرض الديني . وهذا الارتباط يتناسق مع الموقف السياقي للقصة . ذلك لأنها ليست عملاً فنياً مستقلاً ، وإنما هي إحدى وسائل القرآن الكريم لتقويم العقيدة والدعوة إليها وتثبيتها وترسيخها في النفوس والقلوب . وهي كأداة تعبيرية تدرج تحت القضية الكبرى للتعبير القرآني . فالتعبير القرآني في كل ما يورده من صور وقصص ومشاهد ، يؤلف تأليفاً متمزجاً امتزاجاً عضويًا بين الغرض الديني والغرض الفني . فالفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس .

والقصة كوسيط مؤثر قد حظيت بمكانة عالية في القرآن كما شغلت حيزاً كبيراً فيه ، فلا تكاد تخلو سورة من قصة أو من جزء من قصة أو إشارة إلى قصة أو تسجيل هدف سريع لقصة سريعة وهي في جميع الحالات تراعي فيما تراعيه حسن الملاءمة بين الغرض الديني الذي وردت فيه وبين الصياغة الجمالية المؤثرة .

والدراسة تطمع في أن تقف على جماليات الصياغة القصصية في
القرآن الكريم .. فما هي .. إلا نقطة ضوء مقتبسة من مشكاة
القرآن ، نقف بها على بعض الكنوز القرآنية .. والله نسأل أن يوفقنا
ويتقبل منا .

الفصل الأول

مدخل إلى الدراسة

— ١ —

مدخل إلى الدراسة

الاسلام هو دين الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها ، ومحىء الاسلام كان ضرورة لاجراج البشر من الوثنية الضالة التي طمست الفطرة وغطت القلوب بغطاء كثيف من الظلمة ، فحدث من تفكير الانسان ، وسلّت منافذ وجدانه ، وأرجفت مشاعره ، وخنقت توقعه ، وشوقه إلى عالم أفضل ، وقيدت عقله بآلية الحياة ووثنيها ، وأراجيفها ، وخرافاتا . فظل الفرد قابعا ، مقيدا ، ينتظر من يطلقه من هذا القيد الآسر ، حتى ينطلق باحثا عن روحه الحبيسة ، منقبا عن وسائل معينة لتكشف له ذاته ، وتعيّنه على إدراك العوالم التي تتحرك فيها هذه الذات المفردة .

وجاء الاسلام ليعين الانسان على ادراك الحقيقة ، وعلى العودة إلى الفطرة البشرية السليمة إن الاسلام جاء ليأخذ الانسان إلى عالم الكمال والحقيقة ، وينطلق به بعيدا عن رجس الشيطان وآفاقه الوثنية ..

إن الانطلاق الاسلامي ، انطلاق بالفن إلى آفاق عليا لا تتركها إلا النفس الصافية المهذبة ، التي تسعى إلى الكمال ، وتعبر عن رحلتها تعبيرا اسلاميا راقيا .

والفن التعبيري ضرورة لإطفاء الظمأ البشري المحتج إلى عالم الحقيقة ، وعالم الكمال ولكنه يتخذ وسيلة خاصة للوصول إلى هذه الغاية .. وسيلة تتمثل في الكلمة ، بأبعادها وأنماطها وبما تحمله من دلالات ، وبما تكهّن من انسياقة تعبيرية أخاذة .

والقرآن الكريم كتاب الاسلام هو الذخيرة الفنية ، التي تنطلق بالمسلم إلى آفاق لا تحدها حدود ، في عوالم النفس ، والكون ،

والحياة ، والتاريخ .. في نسق تعبيرى معجز ، يمسك بتلابيب النفس ، ويخوض بها غمار الوجدان والفكر ، فتفتتح الذات المسلمة على عوالم مدهشة بالرؤى والجمال والأخلاق ..

إن النفس المتلقية ، المتذوقة ، لتقع — طوعا تحت تأثير هذا البيان المعجز ، الكريم . وإذا كان المسلمون الأوائل احترزوا حين قالوا أدباً ، بل وانصرفوا عنه حين كفاهم القرآن — تلك المتعة الآسرة ، فإن العودة إلى القرآن الكريم مرة أخرى ، هي الخطوة الراقية للحصول على فن إسلامى راق .

فالفن الإسلامى في حاجة شديدة لأن يراجع القرآن ، فهو الذخيرة الموحية لهذا الفن ، كما هو الذخيرة الموحية للحياة .. ولأنه كان سبباً من أسباب إنصراف المسلمين الأوائل عن التعبير الفنى ، لأنه أغناهم — مؤقتاً — عن جمال الأداء بجمال التلقى والانفعال .. ولكن العرب حين عادوا إلى التعبير بعد تلك الفترة المؤقتة ، لم يلجأوا مع الأسف إلى الرصيد الجديد يستمدون منه مشاعرهم وإيجاعاتهم — وأغراض تعبيرهم وطرائقه ، وإنما عادوا إلى الجاهلية في مجال التعبير^(١) حين عادت الأغراض التعبيرية القديمة من جديد .

وإذا كان القرآن الكريم قد عني بالفن الجميل ، فقد دعا المسلم إلى النظر في مجالات الجمال المختلفة في الكون والحياة . قال تعالى في كتابه الكريم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرَىٰ وَحِينَ تُسْرَحُونَ﴾^(٢) فالاحساس بالجمال شعور فطرى ، لا يحتاج إلى تعلم ، وإنما يحتاج إلى من ينبه ، ويثير كوامنه في الداخل . ولقد دعا القرآن ، المسلم أن يستقرىء مظاهر الجمال في الكون والحياة .

(١) منهج الفن الإسلامى . محمد قطب ص ٩ دار الشروق .

(٢) سورة النحل آية (٦) .

والانسان ، حتى يتهذب الذوق وتترى حاسة الادراك الجمالي — وتتأمل النفس مجال الجمال ومكنوناته ، ولا شك ان هذا التأمل والصقل المستمر ينميان في الفرد المسلم (قوة الملاحظة وقوة الفكر ، وقوة التدبر ، وهي العمد التي يقوم عليها الفن) (٣) .

والاسلام يقدر الفن الجميل ويدعو إليه ، انطلاقا من حق الانسان في التمتع بزينه الدنيا وجمالها دون سرف وانحراف وانحطاط . قال تعالى : ﴿ قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ (٤) ومن ثم يرتبط الفن ، في مفهومه الاسلامي — بالأخلاق والتربية ، وتهذيب الروح . ويتسامى بالنفس البشرية إلى آفاق رحبة من المتعة والخير والجمال والأخلاق الفاضلة ، وهي قيم تساهم في تكوين المسلم تكويننا دينيا كاملا ، حتى يصبح القرآن الكريم ، خلقه ، ودستوره ، ومتعته .

والفنان عموما — من الوجهة الاسلامية — لا يضيق بهذا القيد الأخلاقي ، لأن الفن قيد إلتزامي ، وإلا تحول الفن إلى فوضى ودعوة إلى التحرر ، والانحطاط . وتكمن حرية الفنان وقدرته في السيطرة على هذا القيد واحتوائه لصالح فنه . ولصالح أدواته التي يستخدمها وسائل تعبيرية معينة . وليس هناك موضوعات تمنع أو تمنع عن الفنان المسلم ، فهو حر في الاختيار ، وهو يملك إرادته في انتقاء ما يريد التعبير عنه ، حتى عاطفة الحب الجياشة ، وغيرها من العواطف البشرية التي أودعها الله الذات الانسانية ، والتي يحمل الاقتراب منها مظنة الخوف منها والوقوع في موجهها الهادر ، والسقوط أمام إغرائها

(٣) معلمة الاسلام . أنور الجندي . ص ٣٨٧ .

(٤) سورة الأعراف آية (٣٢) .

وفتنها ، فإن المنظور الاسلامي ليس بعيدا عن هذه العواطف . وكيف
يبتعد القرآن ، وقد حكى لنا في سورة كاملة^(٥) نوعا من هذه العواطف
التي دارت في قلب امرأة العزيز وسيطرت عليها ، وكادت أن تحرف
يوسف الفتى آنذاك لو لا عصمة من الله ..

فليس هناك حجر على الفنان وإنما هناك إطار يتحرك داخله
الفنان المسلم ، فهو هنا يعبر عن الحب الانساني ما حلا له أن
يعبر ، وكيف لا يعبر عنه ؟ وقيمة الحب هي القيمة البارزة في سواء
الشخصية المسلمة . ولكن الاسلام يرفض في حسم وقطع ، أن
يتحول التعبير إلى إثارة الغرائز في النفس البشرية . وإنما يسمو بها إلى
عالي الفن الخالص المجرد من كل شبهة — وتضليل — إن السمو
الأخلاقي هو الفيصل النقدي بين ماهو في الفن وبين ماهو بعيد عن
النظرة الاسلامية .

إن الفنون التعبيرية المختلفة ، كالشعر والقصة ، والموسيقى «
والرسم .. وغيرها من الفنون ، لتنتلق وفق المنهاج الاسلامي في
الفن ، متحررة من القيود الآلية ، ومعبرة في انطلاقتها عن كافة
العواطف البشرية في إطار من الضبط الأخلاقي والتوجيه الديني .
ولقد ورد في القرآن الكريم ، ما يدعم النظرة الاسلامية إلى الفن ،
حين تحدث عن نعم الله سبحانه وتعالى على سليمان عليه السلام ،
حين سخر له الجن « فيصنعون له الخراب وهي القصور الشامخات
الجميلة ، والتي تدل على اكتمال في فن العمارة وكذلك التماثيل
العجيبة من النحاس والزجاج . قال الحسن : ولم تكن يومئذ محرمة ،
وقد حرمت في شريعتنا سدا للذريعة لئلا تعبد من دون الله »^(٦) كما

(٥) سورة يوسف وترتيبها بين السور (١٢) .

(٦) صفوة التفسير الجزء الثاني تأليف محمد علي الصابوني ص ٥٤٨ .

صنع له الجن القصاع الضخمة والتي تشبه الأحواض ، وهي مناظر جمالية تزدان بالمياه أو الأشجار ، أو الأزهار ، وكذلك القصور الكبيرة الثابتة التي لا تتحرك لضخامتها . وكل هذه المجالات الفنية إنما هي من صنع فنان ، ولو كان من الجن ، ولقد أوجب الله — بهذا الصنيع الفني — على آل داود أن يشكروه وأن يحمده على نعمه . حيث خصهم الله بالفضل العظيم والفن العظيم أيضاً .

ولم تكن هذه التماثيل تستخدم إلا فيما صنعت من أجله ، بل وكانت إحدى منن الله على عباده . وذلك يدل على ارتباط الفن بالفطرة — ولما تغيرت الفطرة بما داخلها من وثنية ، جاء التحريم . ولكن يظل الفن في الاسلام هو ما يلائم الفطرة — قال تعالى في هذا المجال التذكيري بنعم الله ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ﴾ (٧)

وعلى هذا فإن الفن الاسلامي يتصل اتصالاً وثيقاً بالقرآن الكريم ، وبالتوحيد أي بجوهر العقيدة التي جاء بها الاسلام .

والفن الاسلامي يقوم على الاعتدال والتوازن ، إنه الفن الوسطي الذي لا يجنح إلى التطرف ، أو إلى الافراط والتفريط . والاعتدال مبدأ اسلامي اخلاقي يترسمه المسلم في كل مجالات حياته المادية والمعنوية . ولم يقم صراع ما في الفكر الاسلامي بين الفن والأخلاق . فلا الفن يستقل عن الأخلاق — ولا علاقة الفن بالأخلاق علاقة خضوع أو قسر أو ايقاف له عن انطلاقته . وليس في تحرك الفن الاسلامي في دائرة الأخلاق ما يحول بينه وبين تحقيق هدفه من ابراز حقيقة الشر والخير (فالفن في الاسلام متحرر من المادية الخالصة ،

(٧) سورة سبأ آية (١٣) .

جامع بين الروح والفكر بعيدا عن مفهوم الأوثان والتماثيل والأحجار^(٨) وهو الفن الذي «يسمى اللقاء الكامل بين الجمال والحق . فالجمال حقيقة في هذا الكون ، والحق هو ذروة الجمال»^(٩)

وإذا كان موضوع كتابنا يتناول القصة في القرآن « وإذا كان فن القول — ومنه القصة — يعتمد على الكلمة واللفظ » فإن القرآن الكريم قد وضع للكلمة إطارها وبين مقدارها وغايتها . فالكلمة الطيبة كلمة ذات ثمار يانعة « وآثار طيبة ، وهي زاد للعقل والروح كما أن الشجرة المثمرة زاد للجسم ومن ثم للعقل ، بحكم تكامل الفرد جسما وروحاً . قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾^(١٠) والآية الكريمة مثل ضربه الله لكلمة الايمان ، فمثل لكلمة الايمان بالشجرة الطيبة (قال ابن عباس : الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله) والشجرة الطيبة (المؤمن)^(١١) وبالرغم من التفسير الذي أورده المفسرون — غالبا — فإن المعنى العام سيظل إطارا عاما تتحرك ضمنه الكلمة ، وفن القول كله . فالكلمة يظل تأثيرها قويا وبناء وفاعلا بالنسبة للفرد وللجماعة ، طالما كانت طيبة ، في الأداء والمغزى والهدف الذي تنطلق منه ، وهو العقيدة ، ومبدأ التوحيد الخالص . ومن هنا فإن فن القول ، في هذا الإطار ، ينشر القيم ، ويدعم الأخلاق ، ويرفع لواء الحق « في كل اتجاه ، وكل تعبير ، في أداء

(٨) معلمة الاسلام أنور الجندي ص ٣٨٨ .

(٩) منهج الفن الاسلامي ص ٦ .

(١٠) سورة ابراهيم الآية ٢٤ ، ٢٥ .

(١١) صفوة التفاسير الجزء الثاني — ص ٩٦ .

تعبيري يمتزج فيه الحق بالجمال ويصبح للكلمة الخبيثة خطرهما وآثارها المدمرة ، فما من خبيث يتلاءم مع الفطرة البشرية . وما يتلاءم مع الفطرة هو ما يتماشى مع الفن الاسلامي . والدين الاسلامي يقف محاربا كل الفنون الخبيثة التي تساعد على تحطيم انسانية المسلم ، وتهدم آدميته ، وتتلاعب برغباته ورغائبه الرخيصة ، وتنزله منزلة الحيوان الشرس ولا يعني هذا ان الفن الاسلامي يقف جامدا أمام حركة النفس ورغائبها ، وإنما هو يحترق هذه الحركة ليعلى منها — ويسمو بالنفس عاليا . وهو في ذلك يدعو — أي الفن — إلى إدخال السرور على النفس بوسائل مشروعة ضمن الاطار الأخلاقي إن الكلمة الطيبة نقلت البشرية من جمود الفرائز إلى حيوية الفكر الطليق .. وإن الكلمة في مفهوم الفكر هي جعلت للانسان تاريخا ، فلولاها لما كان هنا ما يسمى بالتاريخ البشري . ولولاها لما ارتفع للحضارة صرح بناء . (١٢) .

ويصبح التسامي بالكلمة عن القول الرخيص من الأهداف الأخلاقية التي يرسبها الفن الاسلامي . وكل فن من فنون القول غيره يقف في قوة وحسم مدافعا عن كل قيمة فاضلة ، وكل مبدأ اخلاقي « وكل مثل أعلى يصور ليحتذى به ، ويكون أسوة حسنة — لهو من الفن الاسلامي .

والقرآن الكريم « هو الذخيرة الحية والنسق البياني المعجز ، وهو النموذج الذي يجب ان يحتذى من الفنانين ، حيث قدم نماذج تعبيرية خالصة في الفن القولي ، ومنه القصة موضوع درسنا الأدبي » ولقد ابرز القرآن الكريم القصة ، شخصية ووصفا ، وحوارا ، ودلالة ، إبرازا واضحا ضمن إطار اعتقادي وديني وتوجيهي ، بحيث تعتبر

(١٢) القرآن والفن . حسين على محمد دار آتون القاهرة ص ٦ .

نموذجا كاملا لفن القصة القرآنية « وعلامة على ما في تراثنا من أصالة في هذا الفن ، وإشارة إلى الفنانين أن ينهلوا من هذا المنهل الثر والنبع الذي يفيض نورا وفنا وجمالا .

إن الجانب الفني في العمل الأدبي جانب مهم جدا في نظر الاسلام .. لأن العمل الأدبي بفنيته يكون قادرا على التأثير وتحقيق الهدف . وكل ما في الأمر أننا يجب أن نحقق من خلال العمل الفني الجيد غايات سامية ، وأهدافا نبيلة ، تسهم بشكل ما في تطوير الحياة الانسانية ودفعها خطوة أو خطوات إلى الأمام في سبيل واقع أفضل^(١٣)

والفن في الاسلام فن موجه ، مهما تنوعت عناصر الفن واجناسه من شعر ونثر وقصة وخطابة ، وعمارة ، وتصوير ، وخط الخ .. والتوجيه هنا يعني الالتزام بالغرض الاعتقادي والديني وابرار القيم الاسلامية والمبادئ الدينية السامية وغرسها في نفوس المسلمين .. وتعميق المعنى الانساني والحياة الانسانية والارتقاء بها عاليا والضن بها أن تهان أو تحتقر « والسمو بتلك الحياة الانسانية نحو الكمال والاكتمال عبر طريق مفروش بقيم الدين وتعاليمه وإرشاداته ، وهو الطريق الذي يليق بالانسان المسلم . وبالأديب المسلم .

وعلى هذا فإن الفن — ومنه القصة القرآنية — له وظيفته التي يؤديها « ورسالته التي يقوم بتوصيلها ، وله هدفه الذي يسعى إلى تحقيقه . فالفن جزء من اهتمامات المسلم ونشاطاته العقلية والوجدانية والابداعية ، ولا بد أن يصدر هذا النشاط الفكري والفني والابداعي عن تعاليم الاسلام ومبادئه السامية . ولا يعني ذلك ابداء

(١٣) القصص في الحديث النبوي . محمد بن حسن الزبير . دار اللواء — الرياض
ص ٣٧١ .

الاهتمام والالتزام بالجانب الموضوعي في الفن على حساب الجانب البنائي في العمل الفني والأدبي ، بل ان العمل الأدبي بموضوعه وشكله يحظى باهتمام بالغ في نظرة الاسلام إلى الفن كما قلنا سابقا .

وليست هناك موضوعات بعينها توضع للأديب يبدع فيها فنه ، فالفنان في الاسلام يكتب ما حلا له أن يكتب ، ينطلق خياله ويسجل قلمه ، ما انفع له به وما ارتآه موضوعا صالحا للكتابة والتعبير . حتى ولو كانت موضوعات شائكة لها حساسيتها الخاصة مثل الموضوعات التي تتناول علاقة المرأة بالرجل . إن هذا الغرض لموضوع بعينه لا يرتضيه الاسلام ، وهو الدين الذي يرسي اسس التحرر من القيود الضالة ، والأثقال المحيطة . الاسلام لا يضع قائمة للأديب يبدع من خلالها ، لأن الاسلام دين يدعو إلى الاختيار حتى تصبح المسؤولية الملقاة على العاتق كاملة . ولكن المطلب الاسلامي — وهو مطلب عقيدي في الأساس — هو أن ينطلق الأديب من منطلق الاسلام ، ويعرض موضوعه من خلال وجهة النظر الاسلامية . وبذلك يصبح للأدب تميز وتفرد يختص به .

فالانسان من وجهة النظر الاسلامية مخلوق — وإن كان مفطورا على النقاء والصفاء — قد كمننت فيه نوازع النفس البشرية ، ففيه ميل إلى الخير وإلى الشر ، العدل والظلم ، الصلاح والفجور ، القوة والضعف ، الحب والكراهة ... وغير ذلك من الثنائيات المتضادة التي تصنع في داخل الانسان محاور للصراع والقلق والجدل .. وهو كإنسان معرض أن يميل هنا أو هناك بحكم الاستعداد الغريزي لديه . قال تعالى ﴿ونفس وما سواها ، فأنهها فجورها وتقواها﴾ (١٤) .

(١٤) سورة الشمس آية ٧ ، ٨ .

وسجل القرآن الكريم ضعف الانسان فقال تعالى ﴿وخلق الانسان ضعيفا﴾ (١٥)

ومع هذا الضعف البشري فإن القرآن الكريم يعلى من الجانب الروحي للانسان لأنه الجانب الأقوى والأكثر فعالية . وهو الذي (يمنح الانسان قوة إيجابية وإرادة فاعلة في أن يختار ، وأي الطريقتين يختار ، وهو بهذه الإيجابية الفاعلة التابعة من جانبه الروحي العلوي ، يملك أن ينتصر على لحظة الضعف ، ثم إن القرآن الكريم وهو يسجل لحظة الضعف تلك يسميها ضعفا ... وإنها ليست هي الأصل ..) (١٦) .

بهذا المفهوم تصبح نظرة الاسلام إلى الفن كنشاط انساني ، نظرة واقعية تجسد حركة الانسان وهو يصارع الضعف البشري للارتقاء إلى المستوى الأفضل ، وهو يدفع الشر ليؤكد الخير ويرسي قواعده . إنها نظرة واقعية إلى الفن — ومنه الفن القصصي الذي يتناول النشاط الانساني — فهي تأخذ الواقع البشري بإطاره الشامل ، وبما فيه من جوانب عليا ، تكشف عنها ، وتوضحها وتبرزها وتصفل معانيها ، وتسלט الأضواء عليها .

والفن الاسلامي يتناول هذه الجوانب السامية بما يجعلها المثل الحي للانسان السوي ، والصورة الرائعة البراقة للمسلم في إطاره العقدي . إن الفن الاسلامي هو الفن الحقيقي الذي يجعل من لحظات الارتفاع والسمو عند الانسان ، البطولة التي تستحق الاظهار وتسلط الأضواء . وللإسلام واقعيته المميزة الخاصة به . فالأمر الواقع لا يفرض ذاته على الاسلام ، فقد يكون هذا الأمر غارقا في الخطأ

(١٥) سورة النساء ية ٢٨ .

(١٦) القصص في الحديث النبوي ص ٣٧٢ .

والفساد ، فوجوده ليس مزية ، وإنما المزية للصواب والحق ، والواقع الذي ينحرف عن الانسانية لا يمكن أن يكون حقا وصوابا ، ومن ثم فللاسلام منه موقف .

فالواقعية الاسلامية لا ترسم صورة مزورة للحياة ، صورة بيضاء ناصعة البياض لأن ذلك يخالف ماجاء في القرآن .

قال تعالى وهو يصف ضعف الانسان ﴿وخلق الانسان ضعيفا﴾ (١٧) .

كما بين القرآن الكريم ما فطر عليه الانسان من رغبات وغرائز . قال تعالى ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث﴾ (١٨) إلى غير ذلك من الآيات التي تتناول نقائص الانسان (تصورها صادقا بارعا عميقا واقعيا إلى أقصى حدود الواقعية .. ولكنها تصورها على وضعها الطبيعي الحقيقي وهي أنها نقائص ينبغي أن يرتفع عليها الانسان ..) (١٩) .

فالواقعية الاسلامية لا تزعم ان الانسان شر كله ، ولا تزعم أنه خير كله وإنما هو خليط بين الاثنين ، والفن الاسلامي مجاله التعبيري أن يرسم تلك الصورة في هذه اللحظة وتلك ، ولكنه لا يسلط الأضواء على حالة الهبوط والتدني فالفن يجب أن يقوم بتصوير الوجدانات البشرية في مختلف حالاتها ومجالاتها دون الاقتصار على حالة دون أخرى .. وهو أمر فني يليق بالواقعية الحقة التي ينبغي أن يمارسها الفن في تصوير الحياة بما تموج به من خير وشر .. فالواقعية

(١٧) سورة النساء ٢٨ .

(١٨) آل عمران آية ١٤ .

(١٩) منهج الفن الاسلامي ص ٥٦ .

الاسلامية تسير على أساس منهج موحد في النظرة الكاملة لفطرة الانسان وجوهر الحياة وسنن الله في كونه .

والفن الاسلامي (ليس هو الفن الذي يتحدث عن حقائق العقيدة مبلورة في صورة فلسفية ، ولا هو مجموعة من الحكم والمواعظ والارشادات ، وإنما هو شيء أشمل من ذلك وأوسع . إنه التعبير الجميل عن حقائق الوجود من زاوية التصور الاسلامي لهذا الوجود)^(٢٠) ومن هذا الشمول والتكامل تأتي نظرتة إلى النفس البشرية ، بحيث تعرض الصورة كاملة بما تتضمن من الماديات والروحانيات في ترابط ممتزج امتزاجا كاملا ، يؤثر بعضها في البعض الآخر ، ولكن مع ابراز القيم الدينية والروحية لأن ابرازها حقيقة كونية متصلة بالفطرة الانسانية ، التي هي مناط الانسان وجوهره الحقيقي .

(٢٠) نفسه ص ١١٩ .

بين القصة القرآنية والقصة البشرية

نحن نعرف القصة القرآنية من خلال ماجاء في القرآن الكريم من أخبار عن الأمم السابقة ، وعن الأنبياء والمرسلين ، وموقف أهمهم منهم . والقرآن الكريم كتاب الله ، ودستور المسلمين إلى الحياة الاسلامية الصحيحة . ذلك أن القرآن الكريم ليس كتاب قصص . وليست قصصه كالروايات أو القصص التي ينشئها الانسان ، حيث تتضمن الحوادث المتخيلة أو المختلفة أو الواقعية .

إنما القصة القرآنية هي القصة التي جاءت بالقرآن ، ونزل بها الوحي الأمين ليخبر بها عن الله سبحانه ، عمّ حدث للأمم السابقة . وعمّ دار بين هذه الأمم والرسل من مواقف وأحداث ، وماجرى بين هذه الأمم وغيرها من الأمم الأخرى ومادار بين الأمة نفسها ، مع ضرب نماذج منها تعطي المثل والعبرة .

وقصص القرآن — وهو قصص لأمر واقعة — يساق للعب وإعطاء المثالات وبيان مكان الضالين والمكذبين ومنزلة المؤمنين المهتدين إلى الحق . فهو قصص للعبرة من المواقع والأحداث ، وليس لمجرد المتعة ، وقضاء الوقت في قراءة القصة أو الاستماع إليها .

قال تعالى : ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ماكان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾^(١)

ولقد جاءت هذه الآية الكريمة خاتمة لقصة يوسف بأجمعها ، لتلخص الهدف ، وتبين المغزى ، وتثير الذهن إلى ادراك الحقيقة

(١) سورة يوسف آية ١١١ .

الثابتة وراء الأحداث المتصارعة ، والمواقف المتشابكة ، والعواطف المشتجرة .

ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقاءه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتخليكه مصر بعد العبودية وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع ، قادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء شأنه وإظهار دينه^(٢)

ومعرفة الظروف التي مرت بمحمد ﷺ توقفنا على العبرة وعلى النمط الفريد الذي جاءت به القصة . ففي تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم ، كان يعاني ﷺ ، من الوحشة والغربة ، والانقطاع في جاهلية قريش ، وكان نزول هذه السورة تخفيفا للآلام ، ذلك أن فترة الدعوة بمكة حفلت بكثير من الأذى والأحزان ، فالقصة حين نزلت كان الهدف هو سوق العبرة وتخفيف الحزن عن الرسول ، فما من شدة إلا ويعقبها فرج ، وما من حزن إلا ويعقبه فرح ، وما من ضيق إلا ويسبقه مخرج .. وجاءت القصة أيضا تحمل التنبأ بما سيحدث على غرار ما حدث . ذلك أنها جاءت تحمل البشر والأنس والراحة والطمأنينة لمن سار على الدرب النبوي السابق ، ومن ثم فهي تبشر "بقرب النصر" .

ومن أجل أن يصل الهدف إلى صاحبه « ومن أجل أن تتحقق الغاية العظمى من سياق القصة وتتابعها ، فقد اختلفت عن السور المكية التي حملت طابع الانذار والوعيد فجاءت قصة يوسف ، وهي المكية أيضا (طرية ندية ، في أسلوب ممتع لطيف ، سلس رقيق » يحمل جو الأنس والرحمة ، والرأفة والحنان ولهذا قال خالد بن معدان «سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة ، وقال

(٢) صفوة التفاسير الجزء الثاني ص ٧١ .

عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها » (٣) ومن أجل ذلك فقد تكررت قصص القرآن الكريم التي تناولت الأنبياء والمرسلين ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالأطناب أو بالابحاز وكذلك قصة ابراهيم وقصة موسى .. وغير ذلك .. من القصص فطبيعة القصة القرآنية ، أنها لم تأت دفعة واحدة باستثناء سورة يوسف ، التي جاءت في السورة كاملة مع تنمة بسيطة وتكرار للمحة منها في سورة أخرى وهي سورة « غافر » الآية (٣٠) .

(قال العلامة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة وبألفاظ متباعدة ، على درجات البلاغة والبيان وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر والأعجاز واضح لمن تأمل (٤)

والمعنى الذي يقصده القرطبي ليس الفكرة الواحدة ، لأن تكرار القصة في مواضع كثيرة لا يعني تكرار المعنى .. أو تكرار الفكرة ، وإنما التكرار هنا يدور حول الشخصية الواحدة في المواقف المختلفة .

ذلك هو مفهوم القصة القرآنية ، من حيث الهدف ومن حيث توزع أجزاء القصة . على حين اختلف كثير من النقاد حول تعريف بعينه ينطبق على القصة أو على الرواية .

فيرى الناقد تشارلتون أن (القصة ضرب من الخيال النثري له مهمة خاصة به ، وهي أن تقص أعمال الرجل العادي في حياته العادية ، بعد أن تضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخطوط ، متباعدة كل

(٣) نفسه الجزء الثاني ص ٣٩ .

(٤) صفوة التفاسير الجزء الثاني ص ٤٠ .

فعل إلى أدق أجزائه وتفصيلاته وسوابقه ولواحقه .. (٥)
 ولا شك أن التعريف يتضمن هذا التسلسل المتتابع للأحداث
 والمواقف ، كما لو كانت شبكة متداخلة الخيوط . كما ان كلمة
 الخيال التي وردت في التعريف تدل على أن الرواية ليست نقلا حرفيا
 للواقع وإنما هي إلتقاء واختيار له ومن ثم يمتزج الخيال بالحقيقة .
 والرواية تصف الرجل العادي . ثم (هي حدث) تلم ترتبط أجزاءه ،
 وتتآزر عناصره في سبيل الوصول إلى الخاتمة ، ثم هي بعد ذلك
 لا تكتفي بوصف الشخصية من خارجها وإنما تتوغل في أعماقها
 لتصف مكنوناتها وتعبر عن وعيها (٦)

وإذا كانت هذه هي نظرة بعض النقاد الغربيين إلى تعريف الرواية
 وهي تعريف يختلف من مدرسة إلى مدرسة ، حسب الاتجاه ،
 والمعتقد ، فإن الدارسين العرب لا تختلف نظرتهم كثيراً عن النظرة
 الغربية ، من حيث اكتمال الموضوع وتتبع الحدث ، والالمام بحياة
 الشخصية الرئيسية ، وطريقة التعبير عنه ، واستكمال أحداثه .

يقول محمود تيمور — وهو أديب ودارس ينطلق تعريفه من منطلق
 النظرة الواقعية الطبيعية كالاتجاه السابق — في تعريفه للرواية ،
 ومحاولة تنظيره لها «أما الرواية ففيها يعالج المؤلف موضوعاً كاملاً أو
 أكثر زائراً بحياة تامة واحدة أو أكثر . فلا يفرغ القارئ منها إلا وقد
 ألم بحياة البطل أو الأبطال في مراحلها المختلفة» (٧)

ولعلنا نلاحظ فروقا كثيرة بين القصة القرآنية وبين القصة البشرية

(٥) فنون الأدب : تشارلتون . ص ١٢٨ ترجمة د. زكي نجيب محمود . لجنة التأليف
 والترجمة .

(٦) بناء الرواية ، د. عبدالفتاح عثمان ص ١٢ مكتبة الشباب القاهرة .

(٧) دراسات في القصة — محمود تيمور ص ١٠٠ المطبعة التوجيهية .

عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها » (٣) ومن أجل ذلك فقد تكررت قصص القرآن الكريم التي تناولت الأنبياء والمرسلين ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالأطناب أو بالابحاز وكذلك قصة ابراهيم وقصة موسى .. وغير ذلك .. من القصص فطبيعة القصة القرآنية ، أنها لم تأت دفعة واحدة باستثناء سورة يوسف ، التي جاءت في السورة كاملة مع تنمة بسيطة وتكرار للمحة منها في سورة أخرى وهي سورة « غافر » الآية (٣٠) .

(قال العلامة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة وبألفاظ متباعدة ، على درجات البلاغة والبيان وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر والأعجاز واضح لمن تأمل (٤)

والمعنى الذي يقصده القرطبي ليس الفكرة الواحدة ، لأن تكرار القصة في مواضع كثيرة لا يعني تكرار المعنى .. أو تكرار الفكرة ، وإنما التكرار هنا يدور حول الشخصية الواحدة في المواقف المختلفة .

ذلك هو مفهوم القصة القرآنية ، من حيث الهدف ومن حيث توزع أجزاء القصة . على حين اختلف كثير من النقاد حول تعريف بعينه ينطبق على القصة أو على الرواية .

فيرى الناقد تشارلتون أن (القصة ضرب من الخيال النثري له مهمة خاصة به ، وهي أن تقص أعمال الرجل العادي في حياته العادية ، بعد أن تضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخطوط ، متباعدة كل

(٣) نفسه الجزء الثاني ص ٣٩ .

(٤) صفوة التفاسير الجزء الثاني ص ٤٠ .

والقصة القرآنية إنما تقدم للبشر — القاريء والمستمع — النموذج المثالي للسلوك وللأخلاق ، وللقدوة المتعالية عن الدنيا وأخطاء البشر . وهذا السلوك الذي تقدمه القصة القرآنية ليس سلوكاً شخصياً ، بل هو سلوك تقتضيه مواجهة الكفر والضلال ، ويوضحه الصراع الهائل بين الرسول وبين الطغاة . ثم هو سلوك مثالي في التصرفات والمعاملات ، وإرشاد الناس بالحكمة والموعظة الحسنة .

والقادة الرسل يمتازون بأنهم مصادر عقيدة ، ومنبع إيمان ، إنهم هم الذين يعلمون الناس الإيمان ويمنحونه قلوبهم ويفيضونه على أرواحهم . وهم بهذا النبع الإيماني الصرف يسيطرون على قلوب أممهم فيدفعونها إلى أبعد الغايات والأهداف ، فيولدون في نفوسهم القوة الهائلة (فيخلقون من الجماعات مهما تكن درجة قوتها المادية أكبر قوة سبّرت الحوادث ، وبنت التاريخ ، ودفعت بالحضارة قدماً) (٩) وهذا هو الفرق بين شخصية القصة القرآنية والشخصية في القصة البشرية . والقصة القرآنية ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقته عرضه وإدارة حوادثه كما هو شأن القصة العادية ، وإنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى إبراز الأغراض الدينية التي تكفل للإنسان السعادة في الدنيا والآخرة . والقصة الفنية التي يقوم بإبداعها قصاص من البشر ، تترجم عن مشاعر ومعاناة التجربة التي مر بها المؤلف أو نقلها عن تجربة مؤثرة ... والنقد التحليلي قد يكشف لنا عن الخفايا النفسية التي تكمن وراء العمل الفني .

أما القصة القرآنية فلا تخضع لهذا الاتجاه التحليلي النفسي ، إلا من جانب واحد فقط يرتبط بتأثيرها في النفوس ودرجة استجابة القلوب لما تدعو إليه القصة ذلك لأن مصدرها هو الخالق ، طابع النفوس

(٩) من هدى القرآن . أمين الخولي ص ٣٠ . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها » (٣) ومن أجل ذلك فقد تكررت قصص القرآن الكريم التي تناولت الأنبياء والمرسلين ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالأطناب أو بالابحاز وكذلك قصة ابراهيم وقصة موسى .. وغير ذلك .. من القصص فطبيعة القصة القرآنية ، أنها لم تأت دفعة واحدة باستثناء سورة يوسف ، التي جاءت في السورة كاملة مع تنمة بسيطة وتكرار للمحة منها في سورة أخرى وهي سورة « غافر » الآية (٣٠) .

(قال العلامة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة وبألفاظ متباعدة ، على درجات البلاغة والبيان وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر والأعجاز واضح لمن تأمل (٤)

والمعنى الذي يقصده القرطبي ليس الفكرة الواحدة ، لأن تكرار القصة في مواضع كثيرة لا يعني تكرار المعنى .. أو تكرار الفكرة ، وإنما التكرار هنا يدور حول الشخصية الواحدة في المواقف المختلفة .

ذلك هو مفهوم القصة القرآنية ، من حيث الهدف ومن حيث توزع أجزاء القصة . على حين اختلف كثير من النقاد حول تعريف بعينه ينطبق على القصة أو على الرواية .

فيرى الناقد تشارلتون أن (القصة ضرب من الخيال النثري له مهمة خاصة به ، وهي أن تقص أعمال الرجل العادي في حياته العادية ، بعد أن تضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخطوط ، متبعة كل

(٣) نفسه الجزء الثاني ص ٣٩ .

(٤) صفوة التفاسير الجزء الثاني ص ٤٠ .

تغاير تماماً ماجاء في التراث العربي القديم ، أو ماجاء في القرآن الكريم وماورد عن الرسول الكريم ، إن القصة الحديثة مبتوتة الجذور بالأصول وهي أقرب إلى القصة الغربية وأسلك في دروبها ومناهجها واساليبها . إنها بمعنى من المعاني فنّ غربي مسيحي خالص ، يختلف اختلافاً بيناً عن طابع القصص القرآني ولا شك ان الخلاف مبعثه الدين والقيم والمسلك العام والخاص ، والتباين الشديد في نوعية الشخصية المسلمة والغربية — وفي التكوين المزاجي والبنيان الجسماني ، والتكوين الحضاري والثقافي .

ولقد تأثرت القصة العربية الحديثة بما تناولته القصة الغربية من موضوعات وإن كانت تغاير طبائع الأمة العربية . ذلك أنه غلب على مؤلفي القصص الدعوة إلى المادية ، فتكالت الشخصيات عليها على حساب الأخلاق والقيم ولقد أثر ذلك في الناس القارئين والسامعين على السواء ، وأصبحت أبطال الأعمال القصصية نماذج تحتذى .

وهو نوع من الاستهتار العقلي يبعثه الروائيون في نفوس الجماهير السهلة الانقياد في قالب منمق يؤدي إلى الاستهانة والسقوط ، مع تبرير السقوط والفاحشة والتماس الأعذار للساقطين والمنحلين ، والمستهترين أخلاقياً . وليس يبعد ان بعض التأخر الذي حاق بالأمة العربية ، وهذا الهبوط الأخلاقي الذي نلمسه في حياتنا ، هو أثر من آثار هذا التقليد الأعمى الذي وقع فيه كتاب العرب .

وليس بخاف علينا مايمحله الغرب المسيحي من عدااء إلى الاسلام وأهله . ومحاولاته المستميتة لغزو الاسلام عبر تخريب العقول وإفساد القلوب ولقد زين الكتاب للناشئة وللناس أموراً لا يرضاها الدين ولا تتلاءم مع أخلاقه وطبيعته . من ذلك الاتجاه الذي يسود في

الأدب العربي الحديث والذي يستخدم الأساطير الوثنية التي أداها القرآن .

فالأسطورة اليونانية وكذلك تراث الأساطير الشرقية القديم ، يعتبر بأن من حيث إن طبيعة كل منهما تستمد موضوعها وأسلوبها من الوثنية الخالصة إنها آداب تقترب من الوثنية . فالخلاف في الجوهر والتصميم كما هو في الشكل والخصائص وفي الدوافع والغايات من حيث إن دوافعه مختلفة تمام الاختلاف عن تلك الدوافع التي يتولد منها الأدب الأوروبي وبرز هذه المعالم هي الايمان والتوحيد وسلامة النظرة وصدق التوكل على الله الخالق الرازق ، وكلها تعطي للأدب طابعا ملؤه الاشراف والتفاؤل والاقبال على الحياة والرضى بقضاء الله (١١) .

ومثل هذه القصص التي تستقي مادتها ، من النظرة إلى الانسان من حيث كونه حيوانا ماديا لا روح فيه ، أكدت على الاستهتار بالدين والقيم والفضائل . وهي أساسا نتيجة الأفكار المتطرفة والنظريات التي لحقت بالعالم الغربي ، مثل نظرية التطور أو نظرية الانتخاب الطبيعي أو نظريات فرويد في التحليل النفسي .. وهي كلها أمور علمية عكسها الفن الروائي الأوروبي . وقام كتاب العربية الروائيون بتقليد ذلك كله فسجلوا على أنفسهم ، التقليد الأعمى ، والانسحاق المزاجي وراء الهرج من القول والفكر والانفصال الحقيقي عن تراث أمتهم وأدائها .

وجاء المذهب الواقعي والطبيعي ليوضح مقولة دارون من أن الانسان حيوان متقدم ، وطراً الاتجاه التحليلي في القصة والنقد وسير أغوار الشخصية من منطلق التفسير «الفرويدي» الذي يفسر سلوك

(١١) معلمة الاسلام ص ٣٩٣ .

الانسان تفسيراً حيوانياً خاضعاً لغرائز فطرية محركها الأساسي هو الجنس .

وانطلق الأدباء ينتجون على ضوئه أدبا جنسيا مكشوفاً ، يخضع فيه الانسان لضعفه وشهوته العارمة ، مركزين الأضواء الكاشفة على لحظة الانسان الهابطة وهو يبحث عن المتاع الدنس . وقد تخصص في هذا النوع من الأدب الجنسي مجموعة من الأدباء ... زاعمين أنهم يصورون الواقع الحقيقي للانسان .(١٢)

إن هذه الاتجاهات والمذاهب ، غير آمنة على الانسان ، اتجاهات وأساليب منحرفة عن حقيقة الانسان وفطرته التي فطره الله عليها ، ومن ثم جعلت هذه المذاهب من الانسان مسخاً بشرياً . ونظرة القرآن الكريم إلى الانسان نظرة كلية شاملة فهو إنسان فرد مطلق في ذاته بلا حدود ولا قيود ، ثم هو في الوقت نفسه عضو ملتحم في جسد اجتماعي مشدود إليه شداً محكماً وثيقاً لا يمكن أن ينفصل عنه إلا إذا فسد هذا العضو أو فسد المجتمع الذي كان ملتحمًا فيه .(١٣)

وإنها لمعادلة صعبة تلك التي يقع بين طرفيها الانسان ، وهي محور الصراع البشري وهي الموضوع الرائع لأي عمل أدبي للقصة يستطيع أن يتناول مثل هذا الانسان في جانبيه الذاتي ، والاجتماعي . ذلك أن «التكيف مع الحياة ضرورة اجتماعية ، وهذا ماتصنعه القصة فهي تخلق تكيفا من نوع ما في إطار العمل الفني ، وذلك من خلال تجميع عناصر الحياة المتشعبة في وحدة دلالية واحدة تمثل الحد المقبول على المستوى الجمعي » عندئذ يبدو السلوك الفردي

(١٢) منهج الفن الاسلامي . محمد قطب ص ٧٤ دار القلم .

(١٣) الانسان في القرآن الكريم . عبدالكريم الخطيب ص ١٠٩ دار الفكر العربي .

واضحاً في إطار الأحداث التاريخية والاجتماعية . أو تختفي العوامل المشوشة التي لا تفسر سلوك الانسان على نحو منطقي في الحياة الواقعية^(١٤)

وبالرغم من محاولات ابراز عنصر التكيف في الفن القصصي فإن الاتجاهات الواقعية والطبيعية والنفسية في الأدب ، تأخذ الانسان كفرد عادي في لحظاتي أبعد ما تكون عن التكيف بل هي قريبة من النبذ والاستلاب .. لحظات الضعف والسقوط ، واعتبرت أن هذا الضعف وهذا السقوط إنما هو الأصل في الطبيعة ، أما الثانوي منه فهو الدين والقيم والأخلاق . واعتبرت كثير من الأعمال الأدبية لحظات ضعف الانسان هي البطولة الحقيقية له . ولذلك فكثيرا ما ترد عبارات الخطيئة الأولى ، والزلة الأولى « وسقوط الانسان منذ البدء .. مشيرين إلى وقوع آدم في المعصية « دون أن يدركوا الهدف من ذلك كله . والله جل وعلا كما وضع القرآن لم يخلق آدم وزوجه ليبقيا في الجنة ، كالملائكة وإنما جاء الخلق ، لعمارة الكون ، وكانت الزلة سببا في الهبوط إلى الأرض ليتحمل الانسان مسؤوليته عن تعمير الكون واستمرار الحياة . ونقطة الانطلاق تختلف تماما . فالاسلام يخاطب الانسان كما قلنا من جانبيه الذاتي والاجتماعي معا . على حين .. أن الأنظمة السياسية والاجتماعية المصنوعة بأيدي الناس لا ينظر إلى الانسان إلا من جانب واحد ، إما من جانب الجماعة كالشيوعية فلا تراه إلا قطرة ماء ذائبة في نهر الجماعة ، واما من جانب ذاته وحده كما في الرأسمالية ، التي تراه ذا وجود مستقل^(١٥) .

ولقد واجه القرآن الكريم الانسان في هذا الجانب الذاتي حتى

(١٤) نقد الرواية د. نبيلة ابراهيم ص ٤٧ .

(١٥) الانسان في القرآن الكريم ص ١١٠ .

لا يقع في مغبته ، فيدعوه إلى النور والهدى . قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا
الانسان من نقطة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إِنَّا هَدَيْنَاهُ
السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ (١٦) والقرآن الكريم يحذر الانسان
مما في طبيعته من عناصر الظلام التي خالطت عناصر النور ، فحذره
من سلطان الغنى ، والغرور والطغيان . وفي قصة قارون نموذج
للقصص القرآني الكريم الذي تناول هذا الجانب الذاتي من الانسان ،
والذي طغى عليه غروره ، وسلطان القوة فيه . ولقد حمله ذلك الغرور
على محادة الله والكفر به .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ
مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ
لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ
الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَاحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا
أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ
الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ
الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً
وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ
فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ . وَاصْبِرْ لِلَّذِينَ
تَمْنُوا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَأَنَّه لَا يَفْلَحُ

الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين» (١٧) .

وقصة قارون تعطي الفارق العظيم بين منطق الايمان ومنطق الطغيان . ولقد وردت قصة قارون ، وهي قصة الطغيان بالمال ، بعد قصة فرعون وهي قصة الطغيان بالجاه والسلطان . وجاء التعقيب بعد قصة قارون لابرار الهدف والمغزى الديني الذي سبقت من أجله القصة وهو أمر خاص بطبيعة القصة القرآنية . ويُنّ التعقيب الالهي ان الدار الآخرة لا يستحقها إلا المتقون الذين يريدون التكبر والطغيان والظلم والعدوان . وتصبح العاقبة محمودة لمن يخشون الله ويراقبونه إن قصة قارون تندرج تحت مايمكن أن نسميه القصة القصيرة ، لأنها وردت في حيز ضيق ، دون اهتمام بالتفصيل أو ايراد التفاصيل ، وهي أيضاً لم تتكرر لأن ايراده في سورة القصص كان كافياً لابرار الغرض الديني . والقصة كاملة في عناصرها . ففيها وصف خارجي لقارون فهو غني ومظاهر الغنى واضحة جليلة في تصرفاته وفي مظهره . وابططه الغنى « فاختل توازنه واصيب بداء نفسي وهو الغرور . ومن ثم لم يتصلح مع نفسه ، ولا مع المجتمع ولم يحدث هذا التكيف الاجتماعي بالمعنى الحديث ، فأحدث بذلك شرخاً في علاقته بالجماعة ، وانقسم الناس إزاءه قسمين » وهذان القسمان يعكسان مافي النفس من جانبيها المتصارعين : الخير ، والشر . ومن ثم توجه البعض إليه بالنصيحة ، على حين تمنى الآخرون أن يكونوا مثله . وهذا الحوار الذي دار بين قارون وقومه يعكس طبيعته الشخصية ، ويفضح مابداخلها . فجاء الأمر كفعل قولي من باب النصيحة ،

لا يقع في مغبته ، فيدعوه إلى النور والهدى . قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا
الانسان من نقطة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إِنَّا هَدَيْنَاهُ
السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ (١٦) والقرآن الكريم يحذر الانسان
مما في طبيعته من عناصر الظلام التي خالطت عناصر النور ، فحذره
من سلطان الغنى ، والغرور والطغيان . وفي قصة قارون نموذج
للقصص القرآني الكريم الذي تناول هذا الجانب الذاتي من الانسان ،
والذي طغى عليه غروره ، وسلطان القوة فيه . ولقد حمله ذلك الغرور
على محادة الله والكفر به .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ
مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ
لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ
الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَاحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا
أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ
الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ
الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً
وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ
فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ . وَاصْبَحَ الَّذِينَ
تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيْكَأَنَّهُ لَا يَفْلَحُ

ومن هنا فإننا نستطيع أن نلمح الفارق بين القصة القرآنية وغيرها من القصص البشري . فالقصة القرآنية تأخذ الواقع الأكبر للإنسانية بصورته الشاملة وبما فيه من خير وشر . وما في فيه من مادة وروح وبما ينطوي عليه من جوانب عليا ، وأنها هي الجوانب الأصيلة فيه ، الجديرة بتسليط الأضواء عليها ، وأن تصور وتكبر أيضا على صفحات الأدب وفي مجالات الفن ، وأن يجعل من لحظات الارتفاع والسمو عند الإنسان البطولة الجديرة بالابراز وتوجيه الأنوار^(١٨) . فالتصور الاسلامي ، الذي جاء به القرآن — هو الموجه للقصة القرآنية في مضمونها ، وأساليب تعبيرها ، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه القصص إنما هي نصوص دينية معجزة .

(١٨) القصص في الحديث النبوي ص ٣٨٠ .

قيم فنية وجمالية

١ — التصوير الفني

القصة القرآنية إحدى وسائل القرآن الكريم لإبراز أغراضه الدينية ذلك أن القرآن كتاب دعوة دينية في المقام الأول ، تتجلى فيه وحدة العقيدة ووحدة الأديان وتماثل وسائل الدعوة منذ البدء حتى الاسلام خاتم الأديان .

... والقرآن — وهو يتخذ من القصة وسيلة للإبلاغ الدعوة وترسيخها ونشرها — يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني . بحيث يتخذ من الجمال الفني والتصوير التعبيري طرائق للتأثير النفسي والوجداني . (فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية^(١)) . فالفن والدين كلاهما عميق الغور في النفس والحس . ولا شك أن صفاء النفس مدعاة طبيعية لحسن التلقي لمجالي الدين والفن .

إن القصة القرآنية تتفرد بلمح خاص بها وهو التصوير . فالتصوير يجعل من العمل القصصي أداة فعالة ومؤثرة في جماهير المتلقين للعمل الفني كما ينشئ علاقة إيجابية بين محور العمل وعناصره وأحداثه وبين السامع أو القارئ لما يتضمنه التصوير الجمالي من حركة متدفقة تبعث الحياة فيما يسمع أو يقرأ من القصة . والتصوير الجمالي الحي ، يشيع جواً من الحياة في ثنايا القصة ، بحيث تنطلق الأخيلة وتتابع الصور على الأذهان (فعملية التصوير البياني تستغل في

(١) التصوير الفني في القرآن سيد قطب ص ١٤٣ .

لا يقع في مغبته ، فيدعوه إلى النور والهدى . قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا
الانسان من نقطة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إِنَّا هَدَيْنَاهُ
السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ (١٦) والقرآن الكريم يحذر الانسان
مما في طبيعته من عناصر الظلام التي خالطت عناصر النور ، فحذره
من سلطان الغنى ، والغرور والطغيان . وفي قصة قارون نموذج
للقصص القرآني الكريم الذي تناول هذا الجانب الذاتي من الانسان ،
والذي طغى عليه غروره ، وسلطان القوة فيه . ولقد حمله ذلك الغرور
على محادة الله والكفر به .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ
مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ
لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ
الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَاحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا
أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ
الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ
الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً
وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ
فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ . وَاصْبِرْ لِلَّذِينَ
تَمْنُوا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَأَنَّه لَا يَفْلَحُ

ولنضرب على ذلك نموذجاً بقصة أصحاب الجنة .. والمراد هنا هو صاحب الجنة وموقفه من صاحب له فقير . وكلاهما نموذج من الناس ، أحدهما غني تبطره النعمة فينسى قدرة الله وعظمته . أما صاحبه فهو نموذج للمؤمن المعتز بإيمانه والذي يرى أن النعمة ماهي إلا دليل على قوة الله وعظمته .

إن القصة تتناول موقف الغني ، وموقف الفقير تجاه نعم الله وقدرته .

قال تعالى :

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلهما ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلأهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه ، وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً . لکنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً . فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً . أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلباً . وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول ياليتي لم أشرك بربي أحداً . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً . هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً﴾^(٣)

(٣) سورة الكهف آيات ٣٢ — ٤٤ .

والآيات الكريمة التي صورت قصة صاحب الجنتين وصاحبه الفقير ، من سورة الكهف . وهي تدور حول محور العقيدة . والقصة مثل واقعي يبين أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة وصفائها .

ثمّة كافر ومؤمن . أما الكافر فقد كانت له بساتين من أعناب مثمرة ومكتنزة بعناقيد الكروم ، وفي وسط هذه البساتين تنمو الزروع وتتفجر المياه . وما أروع ذلك المنظر الذي تصوره الآيات ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الأشجار والأعناب وهما محفوفتان بأشجار النخيل وكل جنة أخرجت ثمارها يانة طيبة المذاق جميلة الشكل .

وصاحب الجنتين ينظر إليهما فيحس بالزهو ويختال غروراً وكبراً ويتعالى على صاحبه الفقير . فهو يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين وقد سيطر عليه الغرور والبطر ونسي الله ، وواجب الشكر على نعمه ، فازدهى قائلاً مفتخراً : إنني أغنى منك وأشرف وأكثر انصاراً وخدماً . وأنكر أن تبعد الجنتان . كما أنكر البعث وقيام القيامة ، وأبدى قوله متحدياً أن الله في حالة البعث سيعطيه كما أعطاه في الدنيا .

إن هذا الموقف المصور بأبعاده ومناظره وبحواره يبين الغرور الذي يصيب أصحاب الثراء والغنى ، من الكفرة الجاحدين لنعم الله .

أما صاحب الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فهو معتر بعقيدته وإيمانه ، معتر بالله . ومن ثم ينكر على صاحبه الغني بطره وكبره ويذكره بمنشئه المهين من ماء وطن ، ويوجهه إلى وجوب الحمد والشكر لواهب النعم ، المعبود وحده لا شريك له . ولا يتركه قبل أن ينذره العاقبة السيئة لجحوده وكبره . إن المؤمن الفقير يستشعر أنه عزيز أمام المال والجاه ، وأن ماعند الله خير من أعراض الدنيا . ولم يكتف الفقير بتوجيه أنظار الغني إلى خطورة مايفعل ، بل

لامه وقرعه واشتد عليه ، ودعا الله ان تبيد الجنة حتى يتعظ صاحبها .
(أكفرت بالذي خلقتك !) والاستفهام للتوبيخ وللتقريع .

وحين ينتهي الحوار بينهما تتحقق المفاجأة المثيرة للذهن وللحس
معاً تقع المفاجأة تصوريا حسياً دامغاً لكل المفتريات التي افترها
الكافر حيث يتحقق رجاء المؤمن بزوال النعيم عن الكافر .

وينقلنا السياق القرآني إلى مشهد تصويري آخر « مشهد يتضاد
مع المشهد الأول . ينقلنا السياق من البهجة والجمال والازدهار
والحياة والتفتح والتدفق إلى مشهد البوار والدمار ، فالثمر كله مدمر
كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء والجنة خاوية على
عروشها ، وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وندماً على ماله الضائع ، وهو
نادم على إشراكه بالله وجوده نعمته ، ويعترف في لحظة الندم
بوحداية الله . وندمه لا ينفعه ولم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه
الهلاك ، فلم تنفعه العشيرة ولا الولد حين اعترز وافتخر بهم وما استطاع
بنفسه أن يدفع عنه العذاب . فالله هو الولي الحق الذي ينصر
أوليائه .

وهكذا يتحول المشهد من جمال متفتح إلى جنة خاوية يقف
وسطها رجل مفجوع ترتسم على ملامحه علامات الحزن والندم وهو
يضرب كفاً بكف أسفاً على ما فات .. وجلال الله ، وعظمة الله ،
وقدرة الله .. تتجلى لتظل الموقف كله وتحدد معالمة ، في حين
تتوارى قدرة الانسان^(٤)

إن القصة في تصويرها البديع لمشاهد المكان وتحوله ، ولحركة
النفس وتغيرها ولموقف الانسان وتباينه ، لتضرب مثلاً للقيم الزائلة

(٤) في ظلال القرآن المجلد ٤ الجزء ١٥ ص ٢٢٧١

لا يقع في مغبته ، فيدعوه إلى النور والهدى . قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا
الانسان من نقطة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إِنَّا هَدَيْنَاهُ
السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ (١٦) والقرآن الكريم يحذر الانسان
مما في طبيعته من عناصر الظلام التي خالطت عناصر النور ، فحذره
من سلطان الغنى ، والغرور والطغيان . وفي قصة قارون نموذج
للقصص القرآني الكريم الذي تناول هذا الجانب الذاتي من الانسان ،
والذي طغى عليه غروره ، وسلطان القوة فيه . ولقد حمله ذلك الغرور
على محادة الله والكفر به .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ
مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ
لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار
الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما أحسن الله إليك
ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما
أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من
القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم
المجرمون . فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة
الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال
الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً
ولا يلقاها إلا الصابرون . فحسبنا به وبداره الأرض فما كان له من
فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . واصبح الذين
تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله ييسط الرزق لمن يشاء من
عباده ويقدر لولا ان من الله علينا لحسف بنا ويكأنه لا يفلح

على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴿٥﴾

وتتفجر عيون الأرض ماء ، وتفيض ، والسماء تفتح أبوابها ، وينهل المطر غزيراً ، ويطغى الماء ، وعلا حتى غطى كل الجبال المرتفعة ، وأمر نوح أن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين ، وسارت السفينة تصارع الأمواج المتلاطمة محروسة من الله في مجراها ومرساها ، والأمواج تفتح للكافرين دوامات ليقبروا فيها ، وليس لهم منجاة من الموت ، فمهما صارعوا الموج خوفاً من الموت فإن الموت غالبهم .

وهذا الهول الذي يحرق بالناس ويحيط بهم ، ينبت هولاً جديداً حين يبصر نوح ابنه فيدعوه أن يركب معه ، ، فعواطف الأب التي تحركت في قلبه جعلته يتلهف على ابنه ، ويناديه لعل ندائه يصل إلى مكان الإيمان من قلبه فيؤمن الابن ، أو يذعن : إنه يقول في لهفة : يا بني هلم إلى السفينة ولا تكن من القوم الذي غضب الله عليهم ، ولكن الكلمات لم تصل إلى قرارة وجدان الابن العاق ، فيتأدى . ويصرخ متحدياً أنه سيأوى إلى جبل عالٍ مرتفع ولم يستمع إلى نصيحة نوح الذي أشجاه لهم حين بين له أنه لا عاصم اليوم من أمر الله .

وتتلاطم الأمواج وتعلو ، هادرة كالجبال ، وتبتلع الأمواج الابن كما ابتلعت كل شيء ، لقد طوى الماء كل شيء على الأرض ..
إننا هنا أمام مشهد يمور بالحركة والقوة والعنف والهول كالجبال في ثقلها وضغطها وجرمها . وحركة الموج تتراكم وتتصالب حتى تبدو للرائي أنها جبل حقيقي ، والتشبيه الحسي يخاطب العين ، وهي وسيلة إدراكية مؤثرة تلتقط أبعاد الهول المرئي .

(٥) سورة هود آيات ٤٠ — ٤٤ .

والآيات الكريمة التي صورت قصة صاحب الجنتين وصاحبه الفقير ، من سورة الكهف . وهي تدور حول محور العقيدة . والقصة مثل واقعي يبين أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة وصفائها .

ثمّة كافر ومؤمن . أما الكافر فقد كانت له بساتين من أعناب مثمرة ومكتنزة بعناقيد الكروم ، وفي وسط هذه البساتين تنمو الزروع وتتفجر المياه . وما أروع ذلك المنظر الذي تصوره الآيات ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الأشجار والأعناب وهما محفوفتان بأشجار النخيل وكل جنة أخرجت ثمارها يانة طيبة المذاق جميلة الشكل .

وصاحب الجنتين ينظر إليهما فيحس بالزهو ويختال غروراً وكبراً ويتعالى على صاحبه الفقير . فهو يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين وقد سيطر عليه الغرور والبطر ونسي الله ، وواجب الشكر على نعمه ، فازدهى قائلاً مفتخراً : إنني أغنى منك وأشرف وأكثر انصاراً وخدماً . وأنكر أن تبعد الجنتان . كما أنكر البعث وقيام القيامة ، وأبدى قوله متحدياً أن الله في حالة البعث سيعطيه كما أعطاه في الدنيا .

إن هذا الموقف المصور بأبعاده ومناظره وبحواره يبين الغرور الذي يصيب أصحاب الثراء والغنى ، من الكفرة الجاحدين لنعم الله .

أما صاحب الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فهو معتر بعقيدته وإيمانه ، معتر بالله . ومن ثم ينكر على صاحبه الغني بطره وكبره ويذكره بمنشئه المهين من ماء وطن ، ويوجهه إلى وجوب الحمد والشكر لواهب النعم ، المعبود وحده لا شريك له . ولا يتركه قبل أن ينذره العاقبة السيئة لجحوده وكبره . إن المؤمن الفقير يستشعر أنه عزيز أمام المال والجاه ، وأن ماعند الله خير من أعراض الدنيا . ولم يكتف الفقير بتوجيه أنظار الغني إلى خطورة مايفعل ، بل

بخصائص العاقل الواعي فتكتمل الاستجابة ويتحقق المغزى . وكذلك (قيل) .. لفظ مبني للمجهول يحمل لعنة على الظالمين ، ليست آتية من فرد بعينه في زمن بعينه وفي مكان بعينه ، وإنما حملت الدلالة العامة الشاملة للانسان وللزمان والمكان .

والقصة تبين مواقف الرسل وهم يواجهون بالاعراض والتكذيب والسخرية والتهديد ، ويظل موقفهم صامداً ثابتاً ، متيقناً من نصر الله ونجاة المؤمنين . ومثل هذه القصص تقوم على حقائق ثابتة وأساسية ، وتمثل في الوحدانية وعدم الشرك به ، والعبودية له ، وهي رسالة منذ آدم حتى محمد . وفي ذلك تسرية للرسول وإيناس له وتثبيت له أيضاً ..

فالقصة القرآنية تبرز الغرض الديني والاعتقادي من خلال السباق الغني ولكن في نسق تعبيرى متوازن يجمع بين الغرض الديني والغرض الفني .

إن المواقف والمشاهد لم تنقل بطريقة إخبارية تزودنا بالمعلومات وكفى ولكنها تنقل بطريقة تصويرية وغير مباشرة يتجلى فيها الفن وروعة الأداء التعبيري ، حيث تنقل هذه المشاهد والمواقف بطريقة يقدم فيها الحدث تقديماً كاملاً ، بحيث يعطينا المعلومة الاخبارية والاحساس المصاحب لذلك ، حيث تتضح التجربة الكاملة ، ومن ثم يمنحنا هذا التكامل الشعور الفياض بالتأثر الوجداني والانفعالي .

ثانياً : تصوير المشاعر والانفعالات :

إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرفها ، فتستحيل القصة حادثاً يقع

والآيات الكريمة التي صورت قصة صاحب الجنتين وصاحبه الفقير ، من سورة الكهف . وهي تدور حول محور العقيدة . والقصة مثل واقعي يبين أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة وصفائها .

ثمّة كافر ومؤمن . أما الكافر فقد كانت له بساتين من أعناب مثمرة ومكتنزة بعناقيد الكروم ، وفي وسط هذه البساتين تنمو الزروع وتتفجر المياه . وما أروع ذلك المنظر الذي تصوره الآيات ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الأشجار والأعناب وهما محفوفتان بأشجار النخيل وكل جنة أخرجت ثمارها يانة طيبة المذاق جميلة الشكل .

وصاحب الجنتين ينظر إليهما فيحس بالزهو ويختال غروراً وكبراً ويتعالى على صاحبه الفقير . فهو يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين وقد سيطر عليه الغرور والبطر ونسي الله ، وواجب الشكر على نعمه ، فازدهى قائلاً مفتخراً : إنني أغنى منك وأشرف وأكثر انصاراً وخدماً . وأنكر أن تبعد الجنتان . كما أنكر البعث وقيام القيامة ، وأبدى قوله متحدياً أن الله في حالة البعث سيعطيه كما أعطاه في الدنيا .

إن هذا الموقف المصور بأبعاده ومناظره وبحواره يبين الغرور الذي يصيب أصحاب الثراء والغنى ، من الكفرة الجاحدين لنعم الله .

أما صاحب الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فهو معتر بعقيدته وإيمانه ، معتر بالله . ومن ثم ينكر على صاحبه الغني بطره وكبره ويذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، ويوجهه إلى وجوب الحمد والشكر لواهب النعم ، المعبود وحده لا شريك له . ولا يتركه قبل أن ينذره العاقبة السيئة لجحوده وكبره . إن المؤمن الفقير يستشعر أنه عزيز أمام المال والجاه ، وأن ماعند الله خير من أعراض الدنيا . ولم يكتف الفقير بتوجيه أنظار الغني إلى خطورة مايفعل ، بل

بقدر كبير من الصراع النفسي كرد فعل للصراع الخارجي .. وخير مثال لذلك .. قصة مريم ..

قال تعالى :

﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشرٌ ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً . فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً . فناداها من تحتها ، ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً . وهزي إليك الجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلي واشربي وقري عينا ، فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلم اليوم انسيا . فأتت به قومها تحمله ، قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغياً . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صيماً . قال إني عبدالله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ (٧).

الآيات الكريمة تصور مريم في حالاتها الانفعالية بينها وبين نفسها ، وبينها وبين الآخرين . وهذه الانفعالات مصحوبة بردود أفعال شرطية ترتبط بالمواقف التي فوجئت مريم بها ، ففي كل موقف ، هزة ، ومع كل مشهد انفعال مصاحب . وفي كل الحالات تعبير

(٧) سورة مريم آيات ١٦ — ٣٠ .

والآيات الكريمة التي صورت قصة صاحب الجنتين وصاحبه الفقير ، من سورة الكهف . وهي تدور حول محور العقيدة . والقصة مثل واقعي يبين أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة وصفائها .

ثمّة كافر ومؤمن . أما الكافر فقد كانت له بساتين من أعناب مثمرة ومكتنزة بعناقيد الكروم ، وفي وسط هذه البساتين تنمو الزروع وتتفجر المياه . وما أروع ذلك المنظر الذي تصوره الآيات ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الأشجار والأعناب وهما محفوفتان بأشجار النخيل وكل جنة أخرجت ثمارها يانة طيبة المذاق جميلة الشكل .

وصاحب الجنتين ينظر إليهما فيحس بالزهو ويختال غروراً وكبراً ويتعالى على صاحبه الفقير . فهو يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين وقد سيطر عليه الغرور والبطر ونسي الله ، وواجب الشكر على نعمه ، فازدهى قائلاً مفتخراً : إنني أغنى منك وأشرف وأكثر انصاراً وخدماً . وأنكر أن تبعد الجنتان . كما أنكر البعث وقيام القيامة ، وأبدى قوله متحدياً أن الله في حالة البعث سيعطيه كما أعطاه في الدنيا .

إن هذا الموقف المصور بأبعاده ومناظره وبحواره يبين الغرور الذي يصيب أصحاب الثراء والغنى ، من الكفرة الجاحدين لنعم الله .

أما صاحب الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فهو معتر بعقيدته وإيمانه ، معتر بالله . ومن ثم ينكر على صاحبه الغني بطره وكبره ويذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، ويوجهه إلى وجوب الحمد والشكر لواهب النعم ، المعبود وحده لا شريك له . ولا يتركه قبل أن ينذره العاقبة السيئة لجحوده وكبره . إن المؤمن الفقير يستشعر أنه عزيز أمام المال والجاه ، وأن ماعند الله خير من أعراض الدنيا . ولم يكتف الفقير بتوجيه أنظار الغني إلى خطورة مايفعل ، بل

فيها الروح الأمين وتركها لتواجه هذا الموقف العصيب ، وما كان منها إلا أن انعزلت في مكان قصي وانفردت بنفسها وغلب عليها الخوف وصارت دائمة التفكير شديدة التوجس من ذلك السر الرهيب الذي ينمو في أحشائها . فهي على وشك أن تواجه الناس بالفضيحة .

وتصور الآيات الكريمة موقف مريم لحظة المخاض وهي تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية . تواجه المخاض الذي «أجاءها» إجابة إلى جذع النخلة واضطربا اضطرابا إلى الاستناد عليها — وهي وحيدة فريدة ، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض ولا علم لها بشيء ولا معين لها في شيء^(٩) ونكاد من فرط اضطراب حواسها أن نحس ماتعانيه ونلمس مواقع الآلام النفسية فيها . إنها تتمنى لو كانت نسيا منسيا .

وكما فوجئت مريم في هزتها الأولى بالملك ، ها هي ذي تفاجأ بمفاجأة عجيبة ، ففي حدة الألم وغمرة الهول . تسمع صوتاً .. ويا للهول ! تسمعه من طفل وليد يناديها أن تطمئن قلبا فهي في رعاية الله . فلا تخزني ولا تحببي أحداً عن سؤال . وها هي ذي مريم ووليدها ، يواجهها قومها بالسخرية والتفريع ، ويسخطون عليها ويتحول السخط إلى تهكم مرير . وذلك التهكم له آثاره المدمرة على نفسية المرأة العادية ، فمابالك بامرأة في مثل مريم وفي مثل موقفها ؟ إن الأمر يكون أكثر ايلاماً . ولكنها تستجمع شتات قوتها ، ولا بد لها أن تفعل وتحمّل من أجل الطفل الصغير وواجهت موقف قومها بالصمت وهم الذين سرحوا في عرضها وتحدثوا في طهرها ولم تنفرج شفتاها ولا بد أن الحياء والخوف اطبقا على لسانها فأشارت إلى الطفل أن

(٩) في ظلال القرآن ص ٢٣٠٧ — مجلد ٤ جزء ١٦ .

والآيات الكريمة التي صورت قصة صاحب الجنتين وصاحبه الفقير ، من سورة الكهف . وهي تدور حول محور العقيدة . والقصة مثل واقعي يبين أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة وصفائها .

ثمّة كافر ومؤمن . أما الكافر فقد كانت له بساتين من أعناب مثمرة ومكتنزة بعناقيد الكروم ، وفي وسط هذه البساتين تنمو الزروع وتتفجر المياه . وما أروع ذلك المنظر الذي تصوره الآيات ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الأشجار والأعناب وهما محفوفتان بأشجار النخيل وكل جنة أخرجت ثمارها يانة طيبة المذاق جميلة الشكل .

وصاحب الجنتين ينظر إليهما فيحس بالزهو ويختال غروراً وكبراً ويتعالى على صاحبه الفقير . فهو يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين وقد سيطر عليه الغرور والبطر ونسي الله ، وواجب الشكر على نعمه ، فازدهى قائلاً مفتخراً : إنني أغنى منك وأشرف وأكثر انصاراً وخدماً . وأنكر أن تبعد الجنتان . كما أنكر البعث وقيام القيامة ، وأبدى قوله متحدياً أن الله في حالة البعث سيعطيه كما أعطاه في الدنيا .

إن هذا الموقف المصور بأبعاده ومناظره وبحواره يبين الغرور الذي يصيب أصحاب الثراء والغنى ، من الكفرة الجاحدين لنعم الله .

أما صاحب الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فهو معتر بعقيدته وإيمانه ، معتر بالله . ومن ثم ينكر على صاحبه الغني بطره وكبره ويذكره بمنشئه المهين من ماء وطن ، ويوجهه إلى وجوب الحمد والشكر لواهب النعم ، المعبود وحده لا شريك له . ولا يتركه قبل أن ينذره العاقبة السيئة لجحوده وكبره . إن المؤمن الفقير يستشعر أنه عزيز أمام المال والجاه ، وأن ماعند الله خير من أعراض الدنيا . ولم يكتف الفقير بتوجيه أنظار الغني إلى خطورة مايفعل ، بل

والمفاجأة الثانية عامة بالجماعة وبالناس ، وفيها الدليل الاشاري إلى الغرض الديني ، وهو محور القصص القرآني ووسائله إلى ابراز الدعوة والوحدانية .

كما اننا نلمس في نسيج السياق القرآني ذلك التناسق الرائع بين الكلمات وظلالها وبين المعاني ، ذلك أن تلك الظلال هي التي تحمل دلالات الانفعال ومؤشرات الوجدان . ولقد صاحب ذلك إيقاع أخذ فيه جمال وطراوة ولقد عكس هذا الإيقاع الرخي الندي الساكن المحدود حالة الانفعالات التي تحيش بنفس مريم ، بحيث يتنوع الإيقاع والفاصلة بتنوع الجو والموضوع والوجدان . مثل : شرقيا ، سويا ، زكيا ، ثم يحمل الإيقاع معنى شعوريا متجددا يلائم هزات النفس ومواقف الآخرين مثل بغيا ، مقضيا ، منسيا ، ثم يحسم الإيقاع الصراع الخارجي لصالح مريم ، ولصالح الغرض الديني . نيبا ، حيا . وهذا التناسق بين الآيات الخاصة بقصة مريم ، يتمازج مع النسق العام للسورة نفسها (سورة مريم) فالسورة في سياقها معرض للانفعالات والمشاعر القوية ، حيث تبدأ الانفعالات والعواطف في النفس الانسانية من مفتتح السورة حتى ختامها .

★ ★ ★

ولنأخذ مشهدا آخر مليئا بالعاطفة والقلق والخوف ، مشهد مرتبط بالأم أيضا . إنها أم موسى .
قال تعالى :

﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .
فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ،

والآيات الكريمة التي صورت قصة صاحب الجنتين وصاحبه الفقير ، من سورة الكهف . وهي تدور حول محور العقيدة . والقصة مثل واقعي يبين أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة وصفائها .

ثمّة كافر ومؤمن . أما الكافر فقد كانت له بساتين من أعناب مثمرة ومكتنزة بعناقيد الكروم ، وفي وسط هذه البساتين تنمو الزروع وتتفجر المياه . وما أروع ذلك المنظر الذي تصوره الآيات ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الأشجار والأعناب وهما محفوفتان بأشجار النخيل وكل جنة أخرجت ثمارها يانة طيبة المذاق جميلة الشكل .

وصاحب الجنتين ينظر إليهما فيحس بالزهو ويختال غروراً وكبراً ويتعالى على صاحبه الفقير . فهو يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين وقد سيطر عليه الغرور والبطر ونسي الله ، وواجب الشكر على نعمه ، فازدهى قائلاً مفتخراً : إنني أغنى منك وأشرف وأكثر انصاراً وخدماً . وأنكر أن تبعد الجنتان . كما أنكر البعث وقيام القيامة ، وأبدى قوله متحدياً أن الله في حالة البعث سيعطيه كما أعطاه في الدنيا .

إن هذا الموقف المصور بأبعاده ومناظره وبحواره يبين الغرور الذي يصيب أصحاب الثراء والغنى ، من الكفرة الجاحدين لنعم الله .

أما صاحب الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فهو معتر بعقيدته وإيمانه ، معتر بالله . ومن ثم ينكر على صاحبه الغني بطره وكبره ويذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، ويوجهه إلى وجوب الحمد والشكر لواهب النعم ، المعبود وحده لا شريك له . ولا يتركه قبل أن ينذره العاقبة السيئة لجحوده وكبره . إن المؤمن الفقير يستشعر أنه عزيز أمام المال والجاه ، وأن ماعند الله خير من أعراض الدنيا . ولم يكتف الفقير بتوجيه أنظار الغني إلى خطورة مايفعل ، بل

فثمة عواطف مختلفة ، بين الخوف والقلق والاضطراب من جهة
ثم الشعور بالاطمئنان المبشر بالراحة والطمأنينة .. وينزل هذا التبشير
على القلب الواجف المضطرب برداً وسلاماً ، بل لقد وصلت البشارة
إلى ذروة الفرح « فالوليد الملقى سيعود إليها ، وسيحظى بالرسالة ..
لقد كانت البشارة تشويقاً ظل عالقا بقلب الأم فزرع الأمل في القلب
وخفف من ضغط الخوف والقلق ..

(ولقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته بعد أن
اقتحمت به عليه حصنه ، لقد حمته بالحبة ، ذلك الستار الرقيق
الشفيف .. حمته بالحلب الحاني في قلب امرأة وتحدث به قسوة
فرعون)^(١٢) ولقد صورت الآيات فرحة امرأة فرعون تصويراً حياً ، فها
هي تشوق إلى الولد ، فجاءها طفلاً وليداً في صندوق تحرسه
العناية ، فتقر نفساً وتفرح به .. لقد غزاها الشوق فأثمرت الحبة
ستاراً حمى موسى وصانه من الغدر .

ولكن الأم وقد ألقت بطفلها في اليم طار عقلها من فرط الجزع
حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ، حتى كادت ان تكشف أمرها
وأمره معا ، لولا ان أدركها أمر الله فألهمها الصبر . وكأنما نسمع في
خلوتها مع النفس تلك التساؤلات التي تحمل دلالة العقاب
والتأنيب .. كيف طاوعتها قلبها أن ترمي بقلدة كبدها في موج
لا تعرف مداه وحركته ؟ والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد أم موسى
تصويراً قوياً وموحياً حين يصفه بكلمة «فارغ» إن التفرغ يعني خلوه
من الادراك ، والتعقل ، والاقتراب من مرحلة الجنون التي هي دلالة
على اللهفة كما هي دلالة على القلق والخوف ..

(١٢) في ظلال القرآن مجلد ٥ جزء ٢٠ ص ٢٦٧٩ .

والآيات الكريمة التي صورت قصة صاحب الجنتين وصاحبه الفقير ، من سورة الكهف . وهي تدور حول محور العقيدة . والقصة مثل واقعي يبين أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة وصفائها .

ثمّة كافر ومؤمن . أما الكافر فقد كانت له بساتين من أعناب مثمرة ومكتنزة بعناقيد الكروم ، وفي وسط هذه البساتين تنمو الزروع وتتفجر المياه . وما أروع ذلك المنظر الذي تصوره الآيات ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الأشجار والأعناب وهما محفوفتان بأشجار النخيل وكل جنة أخرجت ثمارها يانة طيبة المذاق جميلة الشكل .

وصاحب الجنتين ينظر إليهما فيحس بالزهو ويختال غروراً وكبراً ويتعالى على صاحبه الفقير . فهو يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين وقد سيطر عليه الغرور والبطر ونسي الله ، وواجب الشكر على نعمه ، فازدهى قائلاً مفتخراً : إنني أغنى منك وأشرف وأكثر انصاراً وخدماً . وأنكر أن تبعد الجنتان . كما أنكر البعث وقيام القيامة ، وأبدى قوله متحدياً أن الله في حالة البعث سيعطيه كما أعطاه في الدنيا .

إن هذا الموقف المصور بأبعاده ومناظره وبحواره يبين الغرور الذي يصيب أصحاب الثراء والغنى ، من الكفرة الجاحدين لنعم الله .

أما صاحب الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فهو معتر بعقيدته وإيمانه ، معتر بالله . ومن ثم ينكر على صاحبه الغني بطره وكبره ويذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، ويوجهه إلى وجوب الحمد والشكر لواهب النعم ، المعبود وحده لا شريك له . ولا يتركه قبل أن ينذره العاقبة السيئة لجحوده وكبره . إن المؤمن الفقير يستشعر أنه عزيز أمام المال والجاه ، وأن ماعند الله خير من أعراض الدنيا . ولم يكتف الفقير بتوجيه أنظار الغني إلى خطورة مايفعل ، بل

وليس هناك من قيمة تعلو قيمة الايمان . إن يد القدر تضرب الطغيان ضربة مباشرة وتمكن للقللة المؤمنة المستضعفة .

ولا شك أن القصة القرآنية قد أبرزت هذا الغرض الديني الذي يرجع تأثيره إلى القلة المسلمة المستضعفة في مكة ، فقد كانت في حاجة إلى تأكيد هذا المعنى . وكانت الكثرة الظالمة في حاجة إلى التيقن منه .

إن يد القدرة تأخذ بيد المستضعفين فتقدهم ، وتستنقذ عناصر الخير فيهم وتربيهم وتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين .

فالقصة في القرآن تخضع في طريقة عرضها للغرض الديني الذي تحمله ، فهي أداة تربية للنفوس ، ووسيلة تقرير لمعانٍ وحقائق ومبادئ .. وهي تتناسق في هذا مع السياق الذي تعرض فيه ، وتتعاون في بناء القلوب وبناء الحقائق الذي تعمر هذه القلوب^(١٤)

ولقد تضمنت القصة قدراً هائلاً من الصراع الدرامي ، وهو صراع نفس في المقام الأول لأنه يرتبط بداخل الذات ومكان من مشاعرها .. مما يؤدي إلى انطلاق الخيال والانفعالات من سيطرة العقل والبعد عن منطق الواقع والاعتماد على التهويل والمبالغة^(١٥) وهو انفعال مصاحب للصراع في مجال العاطفة والوجدان .

ثالثاً : تصوير الشخصية :

التصوير الفني في القصة القرآنية . يتناول الشخصية التي هي أساس الفعل الدرامي في النسيج الفني كله — بأبعادها المراد التعبير

(١٤) في ظلال القرآن مجلد ٥ جزء ٢٠ ص ٢٦٧٦ .

(١٥) بناء الرواية . د. عبدالفتاح عثمان ص ٨٣ .

عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها » (٣) ومن أجل ذلك فقد تكررت قصص القرآن الكريم التي تناولت الأنبياء والمرسلين ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالأطناب أو بالابحاز وكذلك قصة ابراهيم وقصة موسى .. وغير ذلك .. من القصص فطبيعة القصة القرآنية ، أنها لم تأت دفعة واحدة باستثناء سورة يوسف ، التي جاءت في السورة كاملة مع تنمة بسيطة وتكرار للمحة منها في سورة أخرى وهي سورة « غافر » الآية (٣٠) .

(قال العلامة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة وبألفاظ متباعدة ، على درجات البلاغة والبيان وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر والأعجاز واضح لمن تأمل (٤)

والمعنى الذي يقصده القرطبي ليس الفكرة الواحدة ، لأن تكرار القصة في مواضع كثيرة لا يعني تكرار المعنى .. أو تكرار الفكرة ، وإنما التكرار هنا يدور حول الشخصية الواحدة في المواقف المختلفة .

ذلك هو مفهوم القصة القرآنية ، من حيث الهدف ومن حيث توزع أجزاء القصة . على حين اختلف كثير من النقاد حول تعريف بعينه ينطبق على القصة أو على الرواية .

فيرى الناقد تشارلتون أن (القصة ضرب من الخيال النثري له مهمة خاصة به ، وهي أن تقص أعمال الرجل العادي في حياته العادية ، بعد أن تضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخطوط ، متباعدة كل

(٣) نفسه الجزء الثاني ص ٣٩ .

(٤) صفوة التفاسير الجزء الثاني ص ٤٠ .

الذي يحدد مدى العلاقة الوثيقة التي تربط القصة بالمتلقي .. وتعطي إشارة دلالية على أن العمل القصصي قد بلغ الدرجة الفنية العالية في التناول والعرض والتأثير والتواصل .

وتهتم القصة القرآنية بالجانب التربوي وهي تعرض لنا شخصية ما في موقف ما . فالقرآن الكريم ليس كتابا في القصة يستمتع به الناس أو يتسلون بما ورد فيه من قصص . وإنما هو كتاب دعوة دينية في المقام الأول . وهو دستور المسلمين ومناهجهم إلى حياة اسلامية صحيحة المنشأ والمعتقد ..

ولقد وعت القصة القرآنية هذا المفهوم وعيا تاما ، فجاءت الشخصيات طبيعية تدل افعالها وأقوالها على حقيقتها .. بلا اختلاف ، أو توليف ، أو تغيير ، مثلما تلجأ إليه القصة البشرية التي يقوم بإنشائها انسان ما .. إن تصرفات الشخصية الواحدة لا تتناقض مع الحقيقة المترسبة في أعماقها .

والقصص القرآني قصص يتناول بالأخبار والقصص والحوار أما ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم ، وأشخاصا نموذجيين يصنعون بمواقفهم أمثلة قصصية يضرب بها المثل في معان كريمة وقيم فاضلة — أو أخلاق فاسدة وقيم منحطة ..

وتحصر القصة القرآنية على تصوير الاشخاص تصويرا واضحا كأننا نراها ونشاهدها . وتصاحبها عبارات تصور درجات انفعالها وأنواعها .. «وكأن المعاني صور واضحة في الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصورا متحركا يصور الشخص في مشهد من مشاهد الذعر ما كان أكثر تصويرا من الألفاظ القرآنية .. والأساليب في تصويرها» (١٧)

(١٧) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٠٠ .

عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها » (٣) ومن أجل ذلك فقد تكررت قصص القرآن الكريم التي تناولت الأنبياء والمرسلين ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالأطناب أو بالابحاز وكذلك قصة ابراهيم وقصة موسى .. وغير ذلك .. من القصص فطبيعة القصة القرآنية ، أنها لم تأت دفعة واحدة باستثناء سورة يوسف ، التي جاءت في السورة كاملة مع تنمة بسيطة وتكرار للمحة منها في سورة أخرى وهي سورة « غافر » الآية (٣٠) .

(قال العلامة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة وبألفاظ متباعدة ، على درجات البلاغة والبيان وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر والأعجاز واضح لمن تأمل (٤)

والمعنى الذي يقصده القرطبي ليس الفكرة الواحدة ، لأن تكرار القصة في مواضع كثيرة لا يعني تكرار المعنى .. أو تكرار الفكرة ، وإنما التكرار هنا يدور حول الشخصية الواحدة في المواقف المختلفة .

ذلك هو مفهوم القصة القرآنية ، من حيث الهدف ومن حيث توزع أجزاء القصة . على حين اختلف كثير من النقاد حول تعريف بعينه ينطبق على القصة أو على الرواية .

فيرى الناقد تشارلتون أن (القصة ضرب من الخيال النثري له مهمة خاصة به ، وهي أن تقص أعمال الرجل العادي في حياته العادية ، بعد أن تضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخطوط ، متباعدة كل

(٣) نفسه الجزء الثاني ص ٣٩ .

(٤) صفوة التفاسير الجزء الثاني ص ٤٠ .

الذي يحدد مدى العلاقة الوثيقة التي تربط القصة بالمتلقي .. وتعطي إشارة دلالية على أن العمل القصصي قد بلغ الدرجة الفنية العالية في التناول والعرض والتأثير والتواصل .

وتهتم القصة القرآنية بالجانب التربوي وهي تعرض لنا شخصية ما في موقف ما . فالقرآن الكريم ليس كتابا في القصة يستمتع به الناس أو يتسلون بما ورد فيه من قصص . وإنما هو كتاب دعوة دينية في المقام الأول . وهو دستور المسلمين ومناهجهم إلى حياة اسلامية صحيحة المنشأ والمعتقد ..

ولقد وعت القصة القرآنية هذا المفهوم وعيا تاما ، فجاءت الشخصيات طبيعية تدل افعالها وأقوالها على حقيقتها .. بلا اختلاف ، أو توليف ، أو تغيير ، مثلما تلجأ إليه القصة البشرية التي يقوم بإنشائها انسان ما .. إن تصرفات الشخصية الواحدة لا تتناقض مع الحقيقة المترسبة في أعماقها .

والقصص القرآني قصص يتناول بالأخبار والقصص والحوار أما ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم ، وأشخاصا نموذجيين يصنعون بمواقفهم أمثلة قصصية يضرب بها المثل في معان كريمة وقيم فاضلة — أو أخلاق فاسدة وقيم منحطة ..

وتحصر القصة القرآنية على تصوير الاشخاص تصويرا واضحا كأننا نراها ونشاهدها . وتصاحبها عبارات تصور درجات انفعالها وأنواعها .. «وكأن المعاني صور واضحة في الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصورا متحركا يصور الشخص في مشهد من مشاهد الذعر ما كان أكثر تصويرا من الألفاظ القرآنية .. والأساليب في تصويرها» (١٧)

(١٧) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٠٠ .

عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها » (٣) ومن أجل ذلك فقد تكررت قصص القرآن الكريم التي تناولت الأنبياء والمرسلين ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالأطناب أو بالابحاز وكذلك قصة ابراهيم وقصة موسى .. وغير ذلك .. من القصص فطبيعة القصة القرآنية ، أنها لم تأت دفعة واحدة باستثناء سورة يوسف ، التي جاءت في السورة كاملة مع تنمة بسيطة وتكرار للمحة منها في سورة أخرى وهي سورة « غافر » الآية (٣٠) .

(قال العلامة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة وبألفاظ متباعدة ، على درجات البلاغة والبيان وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر والأعجاز واضح لمن تأمل (٤)

والمعنى الذي يقصده القرطبي ليس الفكرة الواحدة ، لأن تكرار القصة في مواضع كثيرة لا يعني تكرار المعنى .. أو تكرار الفكرة ، وإنما التكرار هنا يدور حول الشخصية الواحدة في المواقف المختلفة .

ذلك هو مفهوم القصة القرآنية ، من حيث الهدف ومن حيث توزع أجزاء القصة . على حين اختلف كثير من النقاد حول تعريف بعينه ينطبق على القصة أو على الرواية .

فيرى الناقد تشارلتون أن (القصة ضرب من الخيال النثري له مهمة خاصة به ، وهي أن تقص أعمال الرجل العادي في حياته العادية ، بعد أن تضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخطوط ، متباعدة كل

(٣) نفسه الجزء الثاني ص ٣٩ .

(٤) صفوة التفسير الجزء الثاني ص ٤٠ .

الذي يحدد مدى العلاقة الوثيقة التي تربط القصة بالمتلقي .. وتعطي إشارة دلالية على أن العمل القصصي قد بلغ الدرجة الفنية العالية في التناول والعرض والتأثير والتواصل .

وتهتم القصة القرآنية بالجانب التربوي وهي تعرض لنا شخصية ما في موقف ما . فالقرآن الكريم ليس كتابا في القصة يستمتع به الناس أو يتسلون بما ورد فيه من قصص . وإنما هو كتاب دعوة دينية في المقام الأول . وهو دستور المسلمين ومنهجهم إلى حياة اسلامية صحيحة المنشأ والمعتقد ..

ولقد وعت القصة القرآنية هذا المفهوم وعيا تاما ، فجاءت الشخصيات طبيعية تدل افعالها وأقوالها على حقيقتها .. بلا اختلاف ، أو توليف ، أو تغيير ، مثلما تلجأ إليه القصة البشرية التي يقوم بإنشائها انسان ما .. إن تصرفات الشخصية الواحدة لا تتناقض مع الحقيقة المترسبة في أعماقها .

والقصص القرآني قصص يتناول بالأخبار والقصص والحوار أما ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم ، وأشخاصا نموذجيين يصنعون بمواقفهم أمثلة قصصية يضرب بها المثل في معان كريمة وقيم فاضلة — أو أخلاق فاسدة وقيم منحطة ..

وتحصر القصة القرآنية على تصوير الاشخاص تصويرا واضحا كأننا نراها ونشاهدها . وتصاحبها عبارات تصور درجات انفعالها وأنواعها .. «وكأن المعاني صور واضحة في الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصورا متحركا يصور الشخص في مشهد من مشاهد الذعر ما كان أكثر تصويرا من الألفاظ القرآنية .. والأساليب في تصويرها» (١٧)

(١٧) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٠٠ .

عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها » (٣) ومن أجل ذلك فقد تكررت قصص القرآن الكريم التي تناولت الأنبياء والمرسلين ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالأطناب أو بالابحاز وكذلك قصة ابراهيم وقصة موسى .. وغير ذلك .. من القصص فطبيعة القصة القرآنية ، أنها لم تأت دفعة واحدة باستثناء سورة يوسف ، التي جاءت في السورة كاملة مع تنمة بسيطة وتكرار للمحة منها في سورة أخرى وهي سورة « غافر » الآية (٣٠) .

(قال العلامة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة وبألفاظ متباعدة ، على درجات البلاغة والبيان وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر والأعجاز واضح لمن تأمل (٤)

والمعنى الذي يقصده القرطبي ليس الفكرة الواحدة ، لأن تكرار القصة في مواضع كثيرة لا يعني تكرار المعنى .. أو تكرار الفكرة ، وإنما التكرار هنا يدور حول الشخصية الواحدة في المواقف المختلفة .

ذلك هو مفهوم القصة القرآنية ، من حيث الهدف ومن حيث توزع أجزاء القصة . على حين اختلف كثير من النقاد حول تعريف بعينه ينطبق على القصة أو على الرواية .

فيرى الناقد تشارلتون أن (القصة ضرب من الخيال النثري له مهمة خاصة به ، وهي أن تقص أعمال الرجل العادي في حياته العادية ، بعد أن تضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخطوط ، متباعدة كل

(٣) نفسه الجزء الثاني ص ٣٩ .

(٤) صفوة التفسير الجزء الثاني ص ٤٠ .

وذهب الهدهد بالكتاب — ولك أن تتخيل المشاعر التي دبت داخل الهدهد «مشاعر الفرح ، ومشاعر الطمأنينة ، ومشاعر النجاة ، من عقاب صارم فضلاً عن علو المكانة بفضيلة الصدق — والزهو بأنه الوحيد الذي أعلم سليمان نبياً كان مجهولاً على سليمان نفسه . لقد أخذته هزة الفرح .. فطار مرفقاً حيث ملكة سبأ .. بلقيس الملكة المتوجة .

٣ — قال تعالى :

(أ) ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَتُؤْنِيْ مُسْلِمِينَ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِيْ فِي أَمْرِيْ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون . قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَلَا بِأَمْرِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِيْ مَاذَا تَأْمُرِينَ . قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . وَإِنِّي مَرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظَرُوا بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢٧) .

هذه الآيات من القصة تحكي مشهد تلقى بلقيس كتاب سليمان .. إن بلقيس تفتح الكتاب .. وإنه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والانبابة والاذعان إلى الدخول في الخضوع للملكه وسلطانه (٢٨) فلا يستكبرون عن الطاعة ولا يتوانون عن القُدوم مسلمين مطيعين . والأمر حاسم ومقطوع به . وجمعت الملكة كبراء قومها وعرضت عليهم الكتاب وطلبت منهم المشورة . فقالوا لها انهم رجال حرب وقوة . وبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها في ذلك الأمر ، لترى فيه ماهو الأرشد لها

(٢٧) سورة النحل ٢٩ — ٣٥ .

(٢٨) قصص الأنبياء — ابن كثير . تحقيق: عبدالقادر عطا ص ٢٧٤ ج ٢ .

عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها » (٣) ومن أجل ذلك فقد تكررت قصص القرآن الكريم التي تناولت الأنبياء والمرسلين ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالأطناب أو بالابحاز وكذلك قصة ابراهيم وقصة موسى .. وغير ذلك .. من القصص فطبيعة القصة القرآنية ، أنها لم تأت دفعة واحدة باستثناء سورة يوسف ، التي جاءت في السورة كاملة مع تنمة بسيطة وتكرار للمحة منها في سورة أخرى وهي سورة « غافر » الآية (٣٠) .

(قال العلامة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة وبألفاظ متباعدة ، على درجات البلاغة والبيان وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر والأعجاز واضح لمن تأمل (٤)

والمعنى الذي يقصده القرطبي ليس الفكرة الواحدة ، لأن تكرار القصة في مواضع كثيرة لا يعني تكرار المعنى .. أو تكرار الفكرة ، وإنما التكرار هنا يدور حول الشخصية الواحدة في المواقف المختلفة .

ذلك هو مفهوم القصة القرآنية ، من حيث الهدف ومن حيث توزع أجزاء القصة . على حين اختلف كثير من النقاد حول تعريف بعينه ينطبق على القصة أو على الرواية .

فيرى الناقد تشارلتون أن (القصة ضرب من الخيال النثري له مهمة خاصة به ، وهي أن تقص أعمال الرجل العادي في حياته العادية ، بعد أن تضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخطوط ، متباعدة كل

(٣) نفسه الجزء الثاني ص ٣٩ .

(٤) صفوة التفسير الجزء الثاني ص ٤٠ .

يريد الدنيا فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي صادق فاتبعوه (٣١)
 إنها أرادت بهذه الهدية أن تجمع الأطراف معاً ، فهي تريد أن
 تأمن جانب سليمان . كما أنها تريد أن تصانع عن نفسها ، وأهل
 مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها (٣٢)

إذن فشخصية بلقيس كما يوحى بها المشهد .. شخصية قوية ..
 فهي ملكة قادرة ، وأمرة وقرارها مطاع .. كما أنها ملكة تؤمن بالشورى
 والحوار « ولو انفردت بالأمر في النهاية .. ثم هي تعرف كيف تفصل
 بين الملكة كشخصية حاكمة ومسؤولة ، وبينها كامرأة لها مشاعر
 وقلب ووجدان .. امرأة تعرف كيف تستميل قلب الرجل — لقد برزت
 هذه الصفات في مجالها دون اختلاط أو تشويه .

(ب) قال تعالى :

﴿فلما جاء سليمان قال أَتُمَدُّوْنَ بِمَالِ مَا آتَانِي اللّٰهُ خَيْرٌ مَّا
 أَتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل
 لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ (٣٣)

في هذا الجزء من المشهد يتبين لنا موقف سليمان من الهدية ...
 فهاهم أولاء رسل ملكة سبأ يحملون الهدايا إلى سليمان — ولكنه
 أنكر عليهم ذلك وغضب ، فهو لا يشتري بالمال ولا يتحول عن
 دعوة الاسلام ، وما أعطاه الله من الملك والنبوة لخير مما أعطوا وما
 حملوا . وإنهم قوم يفرحون بالهدايا لأنهم أهل مفاخرة ومكاثرة في
 الدنيا . وأمر الرسول .. (ارجع أيها الرسول إليهم فلنأتينهم بجنود
 لا قبل لهم بها ، ولا قدرة على احتلالها ، ولنخرجنهم من سبأ أذلة

(٣١) صفوة التفاسير ج٢ ص ٤٠٨ .

(٣٢) قصص الأنبياء ابن كثير ص ٢٧٦ .

(٣٣) سورة النحل ٣٦ — ٣٧ .

ذاهباً عنهم العز والملك والسلطان» (٣٤)

في هذا المشهد ، يبدو حزم النبي سليمان في أمر الدعوة .. فلا مصانعة في الدين .. ومن ثم صحب ذلك .. الاستنكار الشديد ، الدال على حدة الانفعال ، وعاد إلى التهديد مرة أخرى .. تهديداً سافراً بعدما كان مضمراً في الكتاب . «والآن لقد ردّ الرسل بهديتهم ، فلندعهم في الطريق قافلين إن سليمان النبي لملك ، وانه كذلك لرجل ، وإن الملك ليدرك من تجاربه ان هذا الردّ الضيق سينيهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء ، كما يبدو من هديتها له — وأنها ستجيب دعوته على وجه الترجيح بل التحقيق» (٣٥) .

٤ — قال تعالى :

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عَفَرْتُ مِنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِين .

قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَظْعِكُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيم . قَالَ نَكُرُوا هَآءِ عَرْشَهَا ، نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣٦) .

رجع رسل بلقيس إليها ، وألقوا عليها بالخير ، فأدركت لتوها ان هذا ليس بملك ، وأنه لا طاقة لها به . فأرسلت إليه بما يفيد أنها قادمة . إذ لا مفر من السمع والطاعة .

(٣٤) قصص القرآن ص ١٧٠ .

(٣٥) التصوير الفني ص ٢١٣ .

(٣٦) سورة النمل ٣٨ — ٤١ .

الذي يحدد مدى العلاقة الوثيقة التي تربط القصة بالمتلقي .. وتعطي إشارة دلالية على أن العمل القصصي قد بلغ الدرجة الفنية العالية في التناول والعرض والتأثير والتواصل .

وتهتم القصة القرآنية بالجانب التربوي وهي تعرض لنا شخصية ما في موقف ما . فالقرآن الكريم ليس كتابا في القصة يستمتع به الناس أو يتسلون بما ورد فيه من قصص . وإنما هو كتاب دعوة دينية في المقام الأول . وهو دستور المسلمين ومنهجهم إلى حياة اسلامية صحيحة المنشأ والمعتقد ..

ولقد وعت القصة القرآنية هذا المفهوم وعيا تاما ، فجاءت الشخصيات طبيعية تدل افعالها وأقوالها على حقيقتها .. بلا اختلاف ، أو توليف ، أو تغيير ، مثلما تلجأ إليه القصة البشرية التي يقوم بإنشائها انسان ما .. إن تصرفات الشخصية الواحدة لا تتناقض مع الحقيقة المترسبة في أعماقها .

والقصص القرآني قصص يتناول بالأخبار والقصص والحوار أما ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم ، وأشخاصا نموذجيين يصنعون بمواقفهم أمثلة قصصية يضرب بها المثل في معان كريمة وقيم فاضلة — أو أخلاق فاسدة وقيم منحطة ..

وتحصر القصة القرآنية على تصوير الاشخاص تصويرا واضحا كأننا نراها ونشاهدها . وتصاحبها عبارات تصور درجات انفعالها وأنواعها .. «وكأن المعاني صور واضحة في الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصورا متحركا يصور الشخص في مشهد من مشاهد الذعر ما كان أكثر تصويرا من الألفاظ القرآنية .. والأساليب في تصويرها» (١٧)

(١٧) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٠٠ .

ذاهباً عنهم العز والملك والسلطان» (٣٤)

في هذا المشهد ، يبدو حزم النبي سليمان في أمر الدعوة .. فلا مصانعة في الدين .. ومن ثم صحب ذلك .. الاستنكار الشديد ، الدال على حدة الانفعال ، وعاد إلى التهديد مرة أخرى .. تهديداً سافراً بعدما كان مضمرأ في الكتاب . «والآن لقد ردّ الرسل بهديتهم ، فلندعهم في الطريق قافلين إن سليمان النبي لملك ، وانه كذلك لرجل ، وإن الملك ليدرك من تجاربه ان هذا الردّ الضيق سينيهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء ، كما يبدو من هديتها له — وأنها ستجيب دعوته على وجه الترجيح بل التحقيق» (٣٥) .

٤ — قال تعالى :

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِين .

قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيم . قَالَ نَكُرُوا هَآءِ عَرْشَهَا ، نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣٦) .

رجع رسل بلقيس إليها ، وألقوا عليها بالخير ، فأدركت لتوها ان هذا ليس بملك ، وأنه لا طاقة لها به . فأرسلت إليه بما يفيد أنها قادمة . إذ لا مفر من السمع والطاعة .

(٣٤) قصص القرآن ص ١٧٠ .

(٣٥) التصوير الفني ص ٢١٣ .

(٣٦) سورة النمل ٣٨ — ٤١ .

هذا الموقف من القوة بحيث يتضمن انقساماً لمساحة العواطف والسلوك ، ويميز مكونات الذات الانسانية ، فضلاً عن ترسيخ قيم ثابتة ، وابعازها .

ولقد جاءت المفاجآت التي تضمنتها المشاهد ، متلاحمة مع نسيج البناء القصصي بحيث قامت بدورها كعنصر بارز ورئيسي لكشف الوجدان الداخلي للشخصيتين المحورتين .. سليمان .. وبلقيس .

٥ — قال تعالى :

﴿فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدّها ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبتها رجّة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت ربّ إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان الله رب العالمين ؟﴾ (٤٠) .

ووصلت بلقيس ، واستقبلت بحفاوة تستحقها ، وعرض عليها العرش بجماله وزينته ولآلئه مع بعض من التغيير يضيفي عليه تنكيراً ما . وسئلت عما إذا كان هذا عرشها ؟ .. وكان السؤال نتيجة طبيعية للدهشة الفورية التي صاحبت المفاجأة .. مفاجأة أن ترى عرشاً كأنه عرشها . وهذا كما يقول ابن كثير من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلقتة وراءها بأرض اليمن ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب (٤١)

وحين أدرك سليمان دهشتها وحيرتها تحدث سليمان بنعمة الله

(٤٠) قصص الأنبياء . ابن كثير ص ٢٧٩ .

(٤١) التعليل ٤٢ — ٤٤ .

ذاهباً عنهم العز والملك والسلطان» (٣٤)

في هذا المشهد ، يبدو حزم النبي سليمان في أمر الدعوة .. فلا مصانعة في الدين .. ومن ثم صحب ذلك .. الاستنكار الشديد ، الدال على حدة الانفعال ، وعاد إلى التهديد مرة أخرى .. تهديداً سافراً بعدما كان مضمراً في الكتاب . «والآن لقد ردّ الرسل بهديتهم ، فلندعهم في الطريق قافلين إن سليمان النبي لملك ، وانه كذلك لرجل ، وإن الملك ليدرك من تجاربه ان هذا الردّ الضيق سينهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء ، كما يبدو من هديتها له — وأنها ستجيب دعوته على وجه الترجيح بل التحقيق» (٣٥) .

٤ — قال تعالى :

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِينٌ .

قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيمٌ . قَالَ نَكُرُوا هَآءِ عَرْشَهَا ، نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣٦) .

رجع رسل بلقيس إليها ، وألقوا عليها بالخير ، فأدركت لتوها ان هذا ليس بملك ، وأنه لا طاقة لها به . فأرسلت إليه بما يفيد أنها قادمة . إذ لا مفر من السمع والطاعة .

(٣٤) قصص القرآن ص ١٧٠ .

(٣٥) التصوير الفني ص ٢١٣ .

(٣٦) سورة النمل ٣٨ — ٤١ .

إسلام لله رب العالمين . لقد اهتدى قلبها واستنار عقلها .
ولقد برزت المفاجأة في هذه القصة بروزاً واضحاً ، بل تكررت
أكثر من مرة ، واصبحت عنصراً بنائياً فعالاً في نسج القصة الفني ،
كما أنها وسيط معنوي لنقل الفكر والهدف الديني المصاحب له ..
فهي لم تأت اعتباطاً .

والمفاجأة بطبيعتها ذات أثر خاص في نفسية الانسان وداخله
ودوافعه وردود فعله ، وهي هنا تأتي بطريقة موضوعية تثير العقل والقلب
على السواء وهي حين تتحقق لا تبدو أنها مقحمة على نسق القصة ،
بل هي تبدو معقولة تماماً ، في تواجدها ، وبنائها .. فتسجم مع
ظروف القصة ، وطبيعة الموقف وملابساته « وتلائم الجو العام الذي
يسود الحدث .. وترتبط بسياق القصة ونطاق أحداثها ومواقفها .

والغرض الديني بارز في القصة ، فالقصة تبرز بصفة خاصة
استقبال ملكة سبا وقومها لكتاب سليمان — وهو عبد من عباد الله —
واستقبال قريش لكتاب الله ، هؤلاء يكذبون ويجحدون « وأولئك
يؤمنون ويسلمون — والله هو الذي وهب سليمان ما وهب ، وسخر له
ماسخر ، وهو الذي يملك كل شيء » (٤٣) ... ولكن العرض الفني
للقصة أيضاً — وهو لا يتنافى مع الغرض الديني — قد أبدع في
تصوير الشخصية في هذا المشهد الأخير ابداعاً يفي بالغرض الديني
والفني على السواء .. وإنه يكفي لقصة دينية وجهتها الدين وحده ،
أن تبرز هذه الانفعالات النفسية وأن ترسم هذه الانفعالات النفسية ..
فلقد كانت بلقيس « امرأة » كاملة ، تنقي الحرب والتدمير ،
وتستخدم الحيلة والملاطفة « بدل المجاهرة والمحاشنة ، ثم لا تسلم

(٤٣) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ١٩ ص ٢٦٢٥ .

ذاهباً عنهم العز والملك والسلطان» (٣٤)

في هذا المشهد ، يبدو حزم النبي سليمان في أمر الدعوة .. فلا مصانعة في الدين .. ومن ثم صحب ذلك .. الاستنكار الشديد ، الدال على حدة الانفعال ، وعاد إلى التهديد مرة أخرى .. تهديداً سافراً بعدما كان مضمراً في الكتاب . «والآن لقد ردّ الرسل بهديتهم ، فلندعهم في الطريق قافلين إن سليمان النبي لملك ، وانه كذلك لرجل ، وإن الملك ليدرك من تجاربه ان هذا الردّ الضيق سينيهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء ، كما يبدو من هديتها له — وأنها ستجيب دعوته على وجه الترجيح بل التحقيق» (٣٥) .

٤ — قال تعالى :

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِين .

قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيم . قَالَ نَكُرُوا هَآءِ عَرْشَهَا ، نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣٦) .

رجع رسل بلقيس إليها ، وألقوا عليها بالخير ، فأدركت لتوها ان هذا ليس بملك ، وأنه لا طاقة لها به . فأرسلت إليه بما يفيد أنها قادمة . إذ لا مفر من السمع والطاعة .

(٣٤) قصص القرآن ص ١٧٠ .

(٣٥) التصوير الفني ص ٢١٣ .

(٣٦) سورة النمل ٣٨ — ٤١ .

الفصل الثاني

٢ - القصة والجدل

ذاهباً عنهم العز والملك والسلطان» (٣٤)

في هذا المشهد ، يبدو حزم النبي سليمان في أمر الدعوة .. فلا مصانعة في الدين .. ومن ثم صحب ذلك .. الاستنكار الشديد ، الدال على حدة الانفعال ، وعاد إلى التهديد مرة أخرى .. تهديداً سافراً بعدما كان مضمراً في الكتاب . «والآن لقد ردّ الرسل بهديتهم ، فلندعهم في الطريق قافلين إن سليمان النبي لملك ، وانه كذلك لرجل ، وإن الملك ليدرك من تجاربه ان هذا الردّ الضيق سينيهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء ، كما يبدو من هديتها له — وأنها ستجيب دعوته على وجه الترجيح بل التحقيق» (٣٥) .

٤ — قال تعالى :

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِين .

قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَظْعَرُّهُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيم . قَالَ نَكُرُوا هَآءِ عَرْشَهَا ، نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣٦) .

رجع رسل بلقيس إليها ، وألقوا عليها بالخير ، فأدركت لتوها ان هذا ليس بملك ، وأنه لا طاقة لها به . فأرسلت إليه بما يفيد أنها قادمة . إذ لا مفر من السمع والطاعة .

(٣٤) قصص القرآن ص ١٧٠ .

(٣٥) التصوير الفني ص ٢١٣ .

(٣٦) سورة النمل ٣٨ — ٤١ .

٢ - القصة والجدل

لا شك أن لقصص القرآن الكريم أثراً بليغاً في توجيه العقيدة والدعوة إليها ، فضلاً عن تأصيل السلوك الأخلاقي ، ذلك ان السلوك منشؤه شعور بالانفعال بموقف ما يدفعه إلى الفعل ، وحين يكون الشعور الوجداني قد تربى في حضن القيم فإن رد الفعل الناشيء عن دافع الانفعال سيحظى بالضبط الأخلاقي والحرص المسلكي المتوائمين مع العقيدة التي تأصلت جذورها في أعماق الوجدان .

وتأثير القصة التي تصف وتصور ماحق بالمكذبين للرسول وللأنبياء من أهوال العذاب والخسف والتدمير ، لتأثير قوى ، ذلك أنه يحدث إحساساً بالخوف من عاقبة تشبه تلك العاقبة ، ومن عصيان يشبه ذاك العصيان ، ومن تكذيب يماثل ذاك التكذيب ، ومن معاندة تماثل تلك المعاندة .. الأمر الذي يجعل الانسان وهو يتلقى ذلك كله يعقد في مخيلته المقارنات بين ما كان .. وبين ما يكون بين موقف الأمم من انبيائهم .. وموقف الكفار من محمد ﷺ . ولا ينتهي الأمر عند مجرد عقد المقارنة ، بل إن التصور الذهني المصحوب بالانفعال الوجداني يرسم في الذهن تلك المشاهد الموهلة التي تصور تلك النهايات المفزعة والمؤثرة .

إن هذا الشعور بالخوف من العقاب ليس شعوراً وقتياً ، وإنما هو شعور يتجدد في نفس الذات المؤمنة كلما أثار الانفعال ذكر قصة من قصص القرآن الكريم .. وهو هدف تسعى إلى تحقيقه القصة القرآنية ..

والقرآن الكريم — والقصص القرآني بعض كثير منه — يؤلف على اختلاف مقاصده وحدة كاملة متكاملة ، ومتناسقة .. في العقيدة ..

ذاهباً عنهم العز والملك والسلطان» (٣٤)

في هذا المشهد ، يبدو حزم النبي سليمان في أمر الدعوة .. فلا مصانعة في الدين .. ومن ثم صحب ذلك .. الاستنكار الشديد ، الدال على حدة الانفعال ، وعاد إلى التهديد مرة أخرى .. تهديداً سافراً بعدما كان مضمراً في الكتاب . «والآن لقد ردّ الرسل بهديتهم ، فلندعهم في الطريق قافلين إن سليمان النبي لملك ، وانه كذلك لرجل ، وإن الملك ليدرك من تجاربه ان هذا الردّ الضيق سينيهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء ، كما يبدو من هديتها له — وأنها ستجيب دعوته على وجه الترجيح بل التحقيق» (٣٥) .

٤ — قال تعالى :

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِين .

قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَظْعِكُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيم . قَالَ نَكُرُوا هَآءِ عَرْشَهَا ، نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣٦) .

رجع رسل بلقيس إليها ، وألقوا عليها بالخير ، فأدركت لتوها ان هذا ليس بملك ، وأنه لا طاقة لها به . فأرسلت إليه بما يفيد أنها قادمة . إذ لا مفر من السمع والطاعة .

(٣٤) قصص القرآن ص ١٧٠ .

(٣٥) التصوير الفني ص ٢١٣ .

(٣٦) سورة النمل ٣٨ — ٤١ .

واثارت عقلها ، وأدركت بالعقل أن سليمان مؤيد من السماء . فأعلنت إسلامها^(٢) .. وثمة خوارق كثيرة في قصص القرآن .. نأخذ نموذجاً عليها خارقة البعث في قصة ابراهيم .
ولقد غلب على مثل هذه القصص الجدل والمحاورة . وجدل القرآن يدور حول قضايا ينكشف فيها الحق ويدحض الباطل .

قال تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ ، قَالَ بَلَى ، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۚ قَالَ فِخْذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣)

إن ابراهيم هنا يتشوف إلى سر الصنعة الالهية ، وحين يجيء ذلك منه فإنه يكشف عما يختلج في النفس أحيانا من الشوق والتطلع إلى الاقتراب من سر الصنعة الالهية ..

ويستجيب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب ابراهيم ، ويأمره الله أن يختار أربعة من الطير وأن يذبحهن ويفرق أجزاءهن فوق الجبال ثم يدعوهن ، فتتجمع الأجزاء المتفرقة وترتد إليها الحياة .

إنه أمر الله ، والناس لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . والنفوس ولو كانت مؤمنة تسعى إلى الحصول على أكثر من دليل لتزداد إيماناً وإذا كان ابراهيم عليه السلام .. قد سعى وراء ذلك وطلبه ، فمابالنا بالرجل العادي .. ومن ثم وردت الخوارق ، والأدلة العقلية ، على ترسيخ الايمان ، وتأصيل العقيدة ليتكشف الأمر

(٢) انظر فصل التصوير الفني ، تصوير الشخصية . (٣) سورة البقرة آية ٢٦٠ .

ذاهباً عنهم العز والملك والسلطان» (٣٤)

في هذا المشهد ، يبدو حزم النبي سليمان في أمر الدعوة .. فلا مصانعة في الدين .. ومن ثم صحب ذلك .. الاستنكار الشديد ، الدال على حدة الانفعال ، وعاد إلى التهديد مرة أخرى .. تهديداً سافراً بعدما كان مضمراً في الكتاب . «والآن لقد ردّ الرسل بهديتهم ، فلندعهم في الطريق قافلين إن سليمان النبي لملك ، وانه كذلك لرجل ، وإن الملك ليدرك من تجاربه ان هذا الردّ الضيق سينيهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء ، كما يبدو من هديتها له — وأنها ستجيب دعوته على وجه الترجيح بل التحقيق» (٣٥) .

٤ — قال تعالى :

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِين .

قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَظْعِكُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيم . قَالَ نَكُرُوا هَآءِ عَرْشَهَا ، نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣٦) .

رجع رسل بلقيس إليها ، وألقوا عليها بالخير ، فأدركت لتوها ان هذا ليس بملك ، وأنه لا طاقة لها به . فأرسلت إليه بما يفيد أنها قادمة . إذ لا مفر من السمع والطاعة .

(٣٤) قصص القرآن ص ١٧٠ .

(٣٥) التصوير الفني ص ٢١٣ .

(٣٦) سورة النمل ٣٨ — ٤١ .

في قلوبهم .. ويدعو إلى الارتباط الحقيقي بالعقيدة ، والابتعاد عن الشرك .. ومن ثم يتوجه الدليل إلى كفار قريش أنفسهم بحكم أنهم من العرب الذين يرتبطون بإبراهيم .. ويوجههم إلى التوحيد وافراد العبادة لله .

(ومجيء الدليل على لسان رسول يقر بفضل الخالفون كإبراهيم عند العرب أو موسى عند بني إسرائيل ، يعطي الدليل قوة فوق قوة ، إذ تكون الحجة قد اقيمت عليهم من جهتين ، من جهة قوة الدليل الذاتية ، ومن جهة أن الذي قاله رسول أمين يعرفونه ، فيكون هذا قوة إضافية ، وفوق ذلك فيه إلزام وإفحام ، إذ أنهم يدعون أنهم أتباعه (٥)

قال تعالى :

﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربِّني الذي يحبي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم ، فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (٦) .

في قصة إبراهيم مع الملك .. نجد إبراهيم وهو في مجال الجدل العقلي البحت واستخدام البرهان العقلي نجده يلجأ إلى الطريق الذي يحسم هذا الخلاف المشتجر بينه وبين ملك القوم الذي يدعي الألوهية .. والذي ترجح الروايات أنه التمرود .

إنه يلجأ إلى الدليل الحسي الذي يقطع لجاجة القول ويفهم أطراف الحوار المعارضين ؛ وإذا كان الملك قد فهم حين جادله

(٤) القرآن المعجزة الكبرى ص ٣٧٥ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٥٨ .

ذاهباً عنهم العز والملك والسلطان» (٣٤)

في هذا المشهد ، يبدو حزم النبي سليمان في أمر الدعوة .. فلا مصانعة في الدين .. ومن ثم صحب ذلك .. الاستنكار الشديد ، الدال على حدة الانفعال ، وعاد إلى التهديد مرة أخرى .. تهديداً سافراً بعدما كان مضمراً في الكتاب . «والآن لقد ردّ الرسل بهديتهم ، فلندعهم في الطريق قافلين إن سليمان النبي لملك ، وانه كذلك لرجل ، وإن الملك ليدرك من تجاربه ان هذا الردّ الضيق سينيهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء ، كما يبدو من هديتها له — وأنها ستجيب دعوته على وجه الترجيح بل التحقيق» (٣٥) .

٤ — قال تعالى :

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِين .

قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيم . قَالَ نَكُرُوا هَآءِ عَرْشَهَا ، نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣٦) .

رجع رسل بلقيس إليها ، وألقوا عليها بالخير ، فأدركت لتوها ان هذا ليس بملك ، وأنه لا طاقة لها به . فأرسلت إليه بما يفيد أنها قادمة . إذ لا مفر من السمع والطاعة .

(٣٤) قصص القرآن ص ١٧٠ .

(٣٥) التصوير الفني ص ٢١٣ .

(٣٦) سورة النمل ٣٨ — ٤١ .

ضميره واعتقاده من هذا السلطان سواء (٧) .
وهذه هي الهدية التي يهديها الله إلى الناس في الأرض بعقيدة التوحيد .

ولقد اثبت القصص القرآني أن الله وحده هو المستحق للعبادة ،
وبين بطلان عبادة الأوثان .. التي هي أسماء سموها هم وآباؤهم ... ما
أنزل الله بها من سلطان .
كما أن في هذه القصص القرآنية اثباتا للوحدانية .. للذين يدعون
ألوهية ... البشر .

وفي قصة عيسى عليه السلام الدليل القوي على أنه عبدالله تعالى ..

قال تعالى :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَكَلَّمْتَهُ أَلْقَاهَا إِلَى
مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ، انْتَهَوْا خَيْرًا
لَكُمْ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ، لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ
أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ، وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (٨) .

قال تعالى :

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . (٩) ...

(٧) خصائص التصور الاسلامي سيد قطب ص ٣٣٤ .

(٨) سورة النساء آيات ١٧١ — ١٧٢ .

(٩) سورة آل عمران — ٥٩ — ٦٠ ، آل عمران ٦٢ .

ذاهباً عنهم العز والملك والسلطان» (٣٤)

في هذا المشهد ، يبدو حزم النبي سليمان في أمر الدعوة .. فلا مصانعة في الدين .. ومن ثم صحب ذلك .. الاستنكار الشديد ، الدال على حدة الانفعال ، وعاد إلى التهديد مرة أخرى .. تهديداً سافراً بعدما كان مضمراً في الكتاب . «والآن لقد ردّ الرسل بهديتهم ، فلندعهم في الطريق قافلين إن سليمان النبي لملك ، وانه كذلك لرجل ، وإن الملك ليدرك من تجاربه ان هذا الردّ الضيق سينيهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء ، كما يبدو من هديتها له — وأنها ستجيب دعوته على وجه الترجيح بل التحقيق» (٣٥) .

٤ — قال تعالى :

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عَفَرْتُ مِنْ الْجِنِّ أَنَا أَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِين .

قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَظْعِكُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيم . قَالَ نَكُرُوا هَٰذَا عَرْشَهَا ، نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣٦) .

رجع رسل بلقيس إليها ، وألقوا عليها بالخير ، فأدركت لتوها ان هذا ليس بملك ، وأنه لا طاقة لها به . فأرسلت إليه بما يفيد أنها قادمة . إذ لا مفر من السمع والطاعة .

(٣٤) قصص القرآن ص ١٧٠ .

(٣٥) التصوير الفني ص ٢١٣ .

(٣٦) سورة النمل ٣٨ — ٤١ .

الانسانية نفسها .. وهذا البرهان العقلي الواضح البسيط ، للدليل قوي
وبليغ على ان الله واحد لا شريك له « ويشهد بذلك العقل البشري ،
فالقضية في حدود ادراكه « فالعقل لا يتصور خالقا يشبه مخلوقاته
ولا ثلاثة في واحد .
ولا واحدا في ثلاثة .

والمسيح عيسى بن مريم لن يتعالى على أن يكون عبد الله .. لأنه
عليه السلام وهو نبي الله ورسوله خير من يعرف حقيقة الألوهية
وحقيقة العبودية ، وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان .
ولقد عني الاسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه
وحدانية لا تتلبس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور وعني
بتقرير ان الله — سبحانه — ليس كمثله شيء . فلا يشترك معه شيء
في ماهية ولاصفة ولا خاصيته .

وقضية عيسى عليه السلام أخذت كثيراً من الجدل والمناظرة ،
والقرآن الكريم يوجه نظر محمد ﷺ إلى ان ذلك هو القصص
الحق « وأن ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر ..
ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر .. إن هذا
التقرير يتجه إلى الرسول يثبته على الحق الذي معه والذي يتلى عليه .
ويؤكد في حسه كما يؤكد في حس من حوله من المسلمين ،
الذين ربما تؤثر في بعضهم شبهات أهل الكتاب .

ويوجه القرآن الكريم النظر إلى أن الحق كل الحق من الله ، فلا
تكن من الممترين . وما كان الرسول ممتريا ولا شاكاً ، وإنما هو
التثيت على الحق .. وإنا لنذكر من هذا التوجيه .. مدى ما كان ..
يتعرض له المسلمون من كيد فوجب تثبتهم على الحق في وجه
الكائدين والخادعين ، وبيان أن الكون بجملته لا يستقيم أمره

ولا يصلح حاله إلا ان يكون هناك إله واحد يدبر أمره .. (١١)

إن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله ..
ولقد نفت الآيات . الدعوى من أصلها فبينت أن المسيح لم
يدعها فقد كان هو الداعي إلى التوحيد .

ولقد جاء ذلك كله ضمن قصة ، فكان تصريحاً في الاستدلال إذ
ان سوق الدليل في ضمن قصة يجعله أكثر سريانا في النفس ،
وانسيابا في أطوائها .

وقد يجيء الدليل أحيانا في قصص القرآن على لسان حيوان أو
طائر فيكون ذلك غرابة تسترعي الذهن ، وتثير الانتباه وتملأ النفس
إيمانا بالحقيقة . وذلك كما جاء على لسان الهدهد في سورة النمل
في قوله تعالى :

﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش
عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم
الشیطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، الا
يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم
ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾

إن دليل التوحيد جاء على لسان الهدهد ، في عبارة موجزة وإشارة
واضحة ، إنه ينبه في سرده للقصة إلى بطلان عبادة الشمس من دون
الله ، وذلك ضلال للفطرة ، وهو جانب جاء من تزوين الشيطان
الفاسد الأفكار والدائم الوسوسة ، فجعلهم بذلك يتعدون عن حكم
الفطرة السليمة ، وهو أن يسجدوا لله الذي يخرج الخبوء من البذور

(١١) في ظلال القرآن مجلد (١) جزء (٣) ص ٤٠٤ - ٤٠٦ ، وكذلك المجلد (٢) من
المرجع نفسه (١) الجزء ٦ ص ٨١٤ - ٨٢٠ .

والنوى وكل أسباب الوجود^(١٢).

إن الجدل في القرآن .. وفي القصص القرآني خاصة — يتوجه في الكثير الغالب إلى ارشاد القارئ والمدرّك ، والأخذ بأيديهم إلى الحق ، وتوجيه النظر إلى الحقائق وما في الكون من دلائل على القدرة .

إن الأسلوب الجدلي في القرآن الكريم يمتزج بالأسلوب العاطفي ، دون أن يكون ذلك على حساب البرهنة العقلية . فهو يخاطب الإنسان ويثيره ليحرك تطلعه إلى معرفة الحقائق المرتبطة بحياته ، كما يدعوه إلى النظر في الكون للاهتمام إلى الإيمان ، ولا شك أن الاثارة الذهنية موجهة إلى القوة العقلية ليكون الإيمان قائماً على تدبر وتأمل .

لقد عمد القرآن الكريم إلى لمس البداهة وإيقاظ الاحساس ، لينفذ منها مباشرة إلى البصيرة ويتخطاها إلى الوجدان ، وكانت طريقة التعبير عن الجدل طريقة تصويرية خالية من التعقيد اللفظي والجدل الذهني البحت .. وإنما تعتمد على الصور والحواس والمشاهد ، والحوار الخلاق . وذلك كله يشترك في مخاطبة الحس والخيال ولمس البصيرة والوجدان من أجل تركيز عقيدة التوحيد في النفوس . وهذه الطريقة فضلها في أداء الدعوة لكل عقيدة . وهي طريقة ذات أداء فني عالٍ . «فوظيفة الفن الأولى هي إثارة الانفعالات الوجدانية ، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الاثارة وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه .. وكل أولئك تكلفه طريقة التصور والتشخيص للفن الجميل^(١٣)

وقد سلك القرآن الكريم مسلكاً خاصاً في الجدل أرسى به القواعد

(١٢) القرآن المعجزة الكبرى ص ٣٧٦ . (١٣) التصوير الفني في القرآن ص ٢٤٢ .

ولا يصلح حاله إلا ان يكون هناك إله واحد يدبر أمره .. (١١)

إن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله ..
ولقد نفت الآيات . الدعوى من أصلها فبينت أن المسيح لم
يدعها فقد كان هو الداعي إلى التوحيد .

ولقد جاء ذلك كله ضمن قصة ، فكان تصريحاً في الاستدلال إذ
ان سوق الدليل في ضمن قصة يجعله أكثر سريانا في النفس ،
وانسيابا في أطوائها .

وقد يجيء الدليل أحيانا في قصص القرآن على لسان حيوان أو
طائر فيكون ذلك غرابة تسترعي الذهن ، وتثير الانتباه وتملأ النفس
إيمانا بالحقيقة . وذلك كما جاء على لسان الهدهد في سورة النمل
في قوله تعالى :

﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش
عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم
الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، الا
يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم
ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾

إن دليل التوحيد جاء على لسان الهدهد ، في عبارة موجزة وإشارة
واضحة ، إنه ينبه في سرده للقصة إلى بطلان عبادة الشمس من دون
الله ، وذلك ضلال للفطرة ، وهو جانب جاء من تزوين الشيطان
الفاسد الأفكار والدائم الوسوسة ، فجعلهم بذلك يتعدون عن حكم
الفطرة السليمة ، وهو أن يسجدوا لله الذي يخرج الخبوء من البذور

(١١) في ظلال القرآن مجلد (١) جزء (٣) ص ٤٠٤ - ٤٠٦ ، وكذلك المجلد (٢) من
المرجع نفسه (١) الجزء ٦ ص ٨١٤ - ٨٢٠ .

ولا شك أن قضية الوجدانية قد شغلت وجدان ابراهيم عليه السلام واستحوذت على تفكيره ، وصاحبة ليله ونهاره ، جهره وصمته ، سكونه واهتزازة .. قال تعالى :

﴿فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدي ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء^(١٦) مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾^(١٧)

إن هذه الصورة القصصية ، تكشف عن داخل النفس وما اشتجر فيها من صراع حول معرفة الحقيقة الدينية التي يسعى ابراهيم عليه السلام إلى كشفها حتى تفيض عليه نوراً و يقيناً ، إنه حوار جدلي نفس يدور حول الاهتداء القلبي والعقلي إلى وجدانية الله .. وتوجيهه . يقول الزمخشري حول هذه الحلقة من قصة ابراهيم عليه السلام : (وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبهم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ويعرفهم ان النظر الصحيح مؤد إلى ان شيئاً منها لا يصح أن يكون إلها لقيام دليل الحدث فيها وأن وراءها محدثاً أحدثها وصانعاً صنعها ومدبراً دبر طلوعها وأقوالها وانتقالها ومسيرها وساء أحوالها ..)^(١٨)

ومن ثم فلقد جاءت العبارة القرآنية ﴿لئن لم يهدي ربي﴾ لبيان حقيقة مؤكدة ان من يمضي في الطريق هذا ضال كما انها (تنبيه

(١٦) النساء ١٠٧ .

(١٧) الأنعام : ٧٦ - ٧٩ .

(١٨) الكشف جـ ٢ ص ٢٤ .

ولا يصلح حاله إلا ان يكون هناك إله واحد يدبر أمره .. (١١)

إن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله ..
ولقد نفت الآيات . الدعوى من أصلها فبينت أن المسيح لم
يدعها فقد كان هو الداعي إلى التوحيد .

ولقد جاء ذلك كله ضمن قصة ، فكان تصريحاً في الاستدلال إذ
ان سوق الدليل في ضمن قصة يجعله أكثر سريانا في النفس ،
وانسيابا في أطوائها .

وقد يجيء الدليل أحيانا في قصص القرآن على لسان حيوان أو
طائر فيكون ذلك غرابة تسترعي الذهن ، وتثير الانتباه وتملأ النفس
إيمانا بالحقيقة . وذلك كما جاء على لسان الهدهد في سورة النمل
في قوله تعالى :

﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش
عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم
الشیطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، الا
يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم
ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾

إن دليل التوحيد جاء على لسان الهدهد ، في عبارة موجزة وإشارة
واضحة ، إنه ينبه في سرده للقصة إلى بطلان عبادة الشمس من دون
الله ، وذلك ضلال للفطرة ، وهو جانب جاء من تزوين الشيطان
الفاسد الأفكار والدائم الوسوسة ، فجعلهم بذلك يتعدون عن حكم
الفطرة السليمة ، وهو أن يسجدوا لله الذي يخرج الخبوء من البذور

(١١) في ظلال القرآن مجلد (١) جزء (٣) ص ٤٠٤ - ٤٠٦ ، وكذلك المجلد (٢) من
المرجع نفسه (١) الجزء ٦ ص ٨١٤ - ٨٢٠ .

ابراهيم ويزول قلقه بعدما رأى الله في قلبه وعقله وفي الوجود من حوله! (٢٠)

وهذا مشهد قصصي بلغ فيه الجدل حدًا كبيراً .. والقصة تكشف عن موقف إبليس حين عصى ربه ورفض السجود لآدم متباهياً بأصله الناري ومعرضاً بأصل آدم الترابي . إنه يجادل من أجل الدفاع عن نفسه ويقف متحدياً في ضلال وإضلال ويجاهر بالصد عن سبيل الله .. في جرأة لا يفعلها إلا كل ضال عن سبيل الله . قال تعالى :

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك إلا تسجد إذ أمرتك ، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين . قال أنظرني إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين . قال فما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذعوماً مدحوراً لمن تبعد منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ (٢١).

.. هذا موقف جدلي بحث أخذ شكل القصة واعتمد على الحوار اعتماداً كبيراً .. إن جوهر الجدل هنا هو المقارنة بين إبليس وآدم .. تلك المقارنة التي ملكت على إبليس مداركه وأغشت حقه ، ثم يأتي التكريم لآدم والبشر جميعاً ، على أن التكريم في معناه العميق كشف عن تحقير وصم به إبليس واتباعه . ولقد كشف الحوار عن طبع

(٢٠) نظرات في قصص القرآن ص ١ ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢١) الأعراف ١١ - ١٨ .

ولا يصلح حاله إلا ان يكون هناك إله واحد يدبر أمره .. (١١)

إن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله ..
ولقد نفت الآيات . الدعوى من أصلها فبينت أن المسيح لم
يدعها فقد كان هو الداعي إلى التوحيد .

ولقد جاء ذلك كله ضمن قصة ، فكان تصريحاً في الاستدلال إذ
ان سوق الدليل في ضمن قصة يجعله أكثر سريانا في النفس ،
وانسيابا في أطوائها .

وقد يجيء الدليل أحيانا في قصص القرآن على لسان حيوان أو
طائر فيكون ذلك غرابة تسترعي الذهن ، وتثير الانتباه وتملأ النفس
إيمانا بالحقيقة . وذلك كما جاء على لسان الهدهد في سورة النمل
في قوله تعالى :

﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش
عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم
الشیطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، الا
يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم
ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾

إن دليل التوحيد جاء على لسان الهدهد ، في عبارة موجزة وإشارة
واضحة ، إنه ينبه في سرده للقصة إلى بطلان عبادة الشمس من دون
الله ، وذلك ضلال للفطرة ، وهو جانب جاء من تزوين الشيطان
الفاسد الأفكار والدائم الوسوسة ، فجعلهم بذلك يتعدون عن حكم
الفطرة السليمة ، وهو أن يسجدوا لله الذي يخرج الخبوء من البذور

(١١) في ظلال القرآن مجلد (١) جزء (٣) ص ٤٠٤ - ٤٠٦ ، وكذلك المجلد (٢) من
المرجع نفسه (١) الجزء ٦ ص ٨١٤ - ٨٢٠ .

الترقى في تاريخ الانسان ، كان ترقيا في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية^(٢٤) وكان ميلاد الانسان بهذا التكريم الذي أعلنته الآيات . ولقد كشف الموقف الجدلي ثلاثة أنماط من الخلق : نمط يتسم بالطاعة والتسليم وهم الملائكة ، ونمط آخر يتسم بالعصيان وهو إبليس ونمط ثالث وهو الانسان . ولكن الموقف القصصي أعطى لابليس مساحة طويلة نسبياً .. لتتعرف من خلاله على عدو الانسان الأكبر .. وعن خصائص طبيعته التي اتصفت بالشر الأصيل ، ولقد صور الموقف المعاني العقلية والحركات النفسية تصورا تشخيصياً ..

كما أوضح الموقف أن مشيئة الله — وقد أجيب ابليس إلى طلبه — اقتضت أن يترك الكائن البشري يشق طريقه بما ركب في فطرته من استعداد للخير والشر وبما وهبه من عقل راجح .
(لقد جعل الله سبحانه لابليس وقيله فرصة الأغواء ، وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار وتحقيقاً للابتلاء ..)^(٢٥)

.. ولاشك أن أبرز صور الجدل في القصة القرآنية هي الصور الجدلية القصصية التي دارت بين الأنبياء والرسل وبين أقوامهم حول التوحيد ونقاء العقيدة والموضوعات تكاد تكون واحدة في هذه القصص ، فضلا عن وسائل الأنبياء في الدعوة بل إن العبارات الداعية إلى التوحيد وبيان أن الله واحد لا شريك له خلق السموات والأرض وأنعم على الناس بنعمه الظاهرة والباطنة .. وهو الذي يحيى ويميت وإليه الأمر .. هذه العبارات القرآنية تكاد تكون متشابهة في اللفظ والنظم .. ذلك لأن المنشأ واحد والدعوة واحدة والوسيلة واحدة في

(٢٤) الظلال ج ٣ ١٢٦٤ .

(٢٥) نفسه ١٢٦٧ ج ٣ .

ولا يصلح حاله إلا ان يكون هناك إله واحد يدبر أمره .. (١١)

إن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله ..
ولقد نفت الآيات . الدعوى من أصلها فبينت أن المسيح لم
يدعها فقد كان هو الداعي إلى التوحيد .

ولقد جاء ذلك كله ضمن قصة ، فكان تصريحاً في الاستدلال إذ
ان سوق الدليل في ضمن قصة يجعله أكثر سريانا في النفس ،
وانسيابا في أطوائها .

وقد يجيء الدليل أحيانا في قصص القرآن على لسان حيوان أو
طائر فيكون ذلك غرابة تسترعي الذهن ، وتثير الانتباه وتملأ النفس
إيمانا بالحقيقة . وذلك كما جاء على لسان الهدهد في سورة النمل
في قوله تعالى :

﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش
عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم
الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، الا
يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم
ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾

إن دليل التوحيد جاء على لسان الهدهد ، في عبارة موجزة وإشارة
واضحة ، إنه ينبه في سرده للقصة إلى بطلان عبادة الشمس من دون
الله ، وذلك ضلال للفطرة ، وهو جانب جاء من تزوين الشيطان
الفاسد الأفكار والدائم الوسوسة ، فجعلهم بذلك يتعدون عن حكم
الفطرة السليمة ، وهو أن يسجدوا لله الذي يخرج الخبوء من البذور

(١١) في ظلال القرآن مجلد (١) جزء (٣) ص ٤٠٤ - ٤٠٦ ، وكذلك المجلد (٢) من
المرجع نفسه (١) الجزء ٦ ص ٨١٤ - ٨٢٠ .

ولولا رهطك لرحمتك وما أنت علينا بعزير . قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهيرا إن ربي بما تعملون محيط .
ويا قوم اعملوا على مكاتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب . ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿٢٦﴾ .

«إن القصة القرآنية من أغراضها الدينية أنها ترسم النموذج الكامل للمعاملة الحسنة والسلوك القويم . فضلا عن دعوة التوحيد غرضها الأكبر والأعظم . ولكنها بينت مع هذا أن دعوة الأنبياء دعوة — مع التوحيد ونقاء العقيدة — إلى الخير وصلاح النفوس وحسن المعاملة وتقويم المشاعر وتهذيب الأخلاق والتحذير من إفساد الحياة وتخريب النفوس .

وإذا وردت هذه المعاني في شكل قصصي تغلغل إلى النفوس .. وقصة شعيب مع قومه نموذج للقصة التي تضمنت هذه المعاني وأبرزتها ، كما أنها نموذج لسياق الجدل والحوار في سبيل تحقيق وإشاعة هذه المعاني جميعها .

ولقد تضمنت القصة موقفين جدليين كبيرين : الأول الموقف الجدلي حول التوحيد ، جوهر الرسالة ومقصدها العظيم ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...﴾ ومن خلال هذا الغرض الديني الكبير دعا شعيب قومه إلى قيم أخلاقية ترتبط بهذه الدعوة الكلية ، وحياتهم لا تسير وفق نظامها إذ يفتقدون هذه القيم الأخلاقية التي هي أساس نظام الحياة ككل ..

ولا يصلح حاله إلا ان يكون هناك إله واحد يدبر أمره .. (١١)

إن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله ..
ولقد نفت الآيات . الدعوى من أصلها فبينت أن المسيح لم
يدعها فقد كان هو الداعي إلى التوحيد .

ولقد جاء ذلك كله ضمن قصة ، فكان تصريحاً في الاستدلال إذ
ان سوق الدليل في ضمن قصة يجعله أكثر سريانا في النفس ،
وانسيابا في أطوائها .

وقد يجيء الدليل أحيانا في قصص القرآن على لسان حيوان أو
طائر فيكون ذلك غرابة تسترعي الذهن ، وتثير الانتباه وتملأ النفس
إيمانا بالحقيقة . وذلك كما جاء على لسان الهدهد في سورة النمل
في قوله تعالى :

﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش
عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم
الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، الا
يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم
ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾

إن دليل التوحيد جاء على لسان الهدهد ، في عبارة موجزة وإشارة
واضحة ، إنه ينبه في سرده للقصة إلى بطلان عبادة الشمس من دون
الله ، وذلك ضلال للفطرة ، وهو جانب جاء من تزوين الشيطان
الفاقد الأفكار والدائم الوسوسة ، فجعلهم بذلك يتعدون عن حكم
الفطرة السليمة ، وهو أن يسجدوا لله الذي يخرج الخبوء من البذور

(١١) في ظلال القرآن مجلد (١) جزء (٣) ص ٤٠٤ - ٤٠٦ ، وكذلك المجلد (٢) من
المرجع نفسه (١) الجزء ٦ ص ٨١٤ - ٨٢٠ .

وبدعوته .. وانكروا منه أن يدعو هذه الدعوة ، ولتتمسكون له العذر في رهطه الذي هو منهم .. وأصروا على مايفعلون . في غلظة نفس ، وجمود وجدان ، فحاق بهم العذاب الشديد ولقد رسم الحوار معالم الشخصية بالتعبير عن المواقف والصراع المشتجر (على طريقة الحكاية عنهم « ونقل أقوالهم نقلا أميناً لا مبالغة فيه ولا افتعال ، فصاغ معانيها على ما يقتضيه أسلوب اعجازه .. حتى يكون الاعجاز البياني للأقوال المحكية إعجازاً للقرآن لا لتلك الأقوال) (٢٧) وفي هذا المجال الاعجازي يقول الزمخشري في فائدة الأمر والنهي الذي ورد في مطالبة شعيب قومه بالوفاء بالكيل والبعد عن بحس الناس أشياءهم .. (نہو أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان لأن في التصريح بالقبيح نعيًا على المنهى وتعبيراً له ثم ورد الأمر بالايفاء الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجيء به مقيداً بالقسط أي ليكن الايفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان ٢) (٢٨)

ولا شك أن الحوار يثري الجدل في الموقف القصصي ويجيى المشاهد المرسومة في دقة متناهية ويصور الانفعالات تصويراً دقيقاً كما يحمل الاقتناع والتأثير .. ومن ثم ارتبط الجدل بالحوار ارتباطاً وثيقاً ، فكشف عن نبل المقصد والترفع في الخطاب من جانب الرسل وعن لاجاة الخصوم وسوء مخبرهم .. وعنادهم ومكرمهم من جانب آخر .

(٢٧) سيكلوجية القصة في القرآن ص ٤١١ .

(٢٨) الكشف ج ٢ ص ٢٢٨ .

ولا يصلح حاله إلا ان يكون هناك إله واحد يدبر أمره .. (١١)

إن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله ..
ولقد نفت الآيات . الدعوى من أصلها فبينت أن المسيح لم
يدعها فقد كان هو الداعي إلى التوحيد .

ولقد جاء ذلك كله ضمن قصة ، فكان تصريحاً في الاستدلال إذ
ان سوق الدليل في ضمن قصة يجعله أكثر سريانا في النفس ،
وانسيابا في أطوائها .

وقد يجيء الدليل أحيانا في قصص القرآن على لسان حيوان أو
طائر فيكون ذلك غرابة تسترعي الذهن ، وتثير الانتباه وتملأ النفس
إيمانا بالحقيقة . وذلك كما جاء على لسان الهدهد في سورة النمل
في قوله تعالى :

﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش
عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم
الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، الا
يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم
ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾

إن دليل التوحيد جاء على لسان الهدهد ، في عبارة موجزة وإشارة
واضحة ، إنه ينبه في سرده للقصة إلى بطلان عبادة الشمس من دون
الله ، وذلك ضلال للفطرة ، وهو جانب جاء من تزوين الشيطان
الفاقد الأفكار والدائم الوسوسة ، فجعلهم بذلك يتعدون عن حكم
الفطرة السليمة ، وهو أن يسجدوا لله الذي يخرج الخبوء من البذور

(١١) في ظلال القرآن مجلد (١) جزء (٣) ص ٤٠٤ - ٤٠٦ ، وكذلك المجلد (٢) من
المرجع نفسه (١) الجزء ٦ ص ٨١٤ - ٨٢٠ .

الفصل الثالث

٣ — مواءمة القصة لمراحل الأحداث
ولمواقف الدعوة

مواءمة القصة القرآنية لمراحل الأحداث ولمواقف الدعوة

القصة القرآنية — وهي عمل فني رائع — وسيلة هامة ومؤثرة من الوسائل القرآنية الكثيرة التي تحقق الأغراض الدينية وتبرز الأصول الرواسخ في العقيدة الإسلامية والتي احتواها القرآن الكريم بحكم كونه الدستور الخالد الذي ينظم حركة الحياة للإنسان في الدنيا والآخرة . والقرآن الكريم — الوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ — كتاب دعوة إلى الله ، وإلى الوجدانية ، وإلى الحق . في المقام الأول ، ولما كان هزّ الوجدان وإثارة العاطفة الشعورية مدخلا وجدانيا إلى تريق العاطفة وربطها بالشعور الديني الفياض الذي هو فطرة عميقة في النفس البشرية .. فإن القصة تصبح في هذا المجال عاملا مثيرا ومؤثرا في نفس الوقت ، وتصبح وسيطا تربويا رائعا للتأثير في الذات ، وفي تطهير النفس من المشاعر الدخيلة على الفطرة البشرية . ولقد تلازمت القصة مع الإنسان منذ بدأ يعي مدركات الحياة ومفرداتها ، حتى أضحي ميل الإنسان إلى القصة أو الحكاية أو الخبر المثير — سماعا أو قراءة ميلا يكاد يكون فطريا .. ومن ثم تكون الدعوة عن طريقها أكثر نفاذا وأعمق تأثيرا .

وفي هذا المجال — مجال الدعوة — الدعوة إلى الإسلام ومواجهة طواغيت الكفر — فإن القرآن الكريم أعطى للقصة مميزات خاصة تصل بها إلى الكمال في المعنى والمبنى —

وتلك الصفات التي تبرزها القصة القرآنية وتتميز بها في ذات الوقت .. تتمثل في حمل لواء التوجيه والتعليم والوعظ والإرشاد والاختبار ، والنصح والوعد والوعيد « ووصف الجنة والنار وصفا دقيقا ومباشراً في الآن نفسه — مما جعل القصة القرآنية ذات دور حاسم

ومدخل القصة إلى ذلك التوجيه والتصحيح والتقويم : هو إثارة الشعور الانفعالي الدافع إلى الفعل .. حتى يصبح للعامل الوجداني تأثيره ، ومن ثم يضحي مردوده الفعلي مردوداً سلوكياً ، وقيماً .. يتلاءم مع العقيدة ومع الدين ، ومع وصفية المسلم ، كحامل لدستور الاسلام الخالد ، وكحامل للأمانة التي ألقاها الله على عاتقه ، فيصبح أهلاً لتحمل تلك الأمانة بمفهومها الخاص المرتبط بالدين الاسلامي ومفهومها العام المرتبط بوحدة الكون ولقد أدرك الرسول ﷺ ما للقصة من تأثير ، فسلك نهج القرآن الكريم في توظيف القصة من أجل تعميق مبادئ الاسلام في النفوس ، فالرسول يتخذ من القصة أسلوباً للدعوة — على تعدد أساليبها — يحمل قيم الاسلام ومعانيه . ولقد أدرك ﷺ ما للقصة من تأثير ، فكان يقص على المسلمين قصصاً يضمنها القيم والأخلاق وشتى الموضوعات التي تتناول حياة المسلمين وتأثير الاسلام في نفوسهم ومعاشهم .

والرسول في ذلك ينطلق من ضرورة استغلال الإقبال على القصة كعنصر حيوي استجابة للمناخ الذي يطلب القصة ويطالب بها .. فضلاً عن حاجة الانسان إلى القصة كعنصر ملازم له منذ الطفولة . وكان رسول الله ﷺ حريصاً على أن يتعهد أصحابه بالقصة يعظهم بها ويذكرهم . ولما كانت «الصفة» ملتقى ضيوف الاسلام في المدينة من الوفود أو المسلمين حديثاً أو الفقراء الذين يأوون إليها ، وجد فيها الرسول ﷺ فرصة كبيرة يلتقي بالمجتمعين فيها فيحدثهم ويذكرهم بالقصص وغيرها^(١) .

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٥٤ — ٥٥ .

قال تعالى : ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ (٣) .

ولقد سائرت القصة مراحل الدعوة الاسلامية وتواءمت مع الأحداث والمواقف وبرزت عناصر القصة — حسب الضرورة الفنية والموضوعية — بما يخدم الحدث والمرحلة والمواقف المتجددة في الدعوة .

إن الدعوة المحمدية استمرت ثلاث عشرة سنة كلها إعراض من قومه عن الاستماع لقرآنه وصدد لغيرهم عن الاصغاء له ، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت معه ، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرتهم مدة غير يسيرة في شعب من شعاب مكة ، ثم مؤامرات سرية أو علنية على قتله أو نفيه (٤) .

وفي هذا الليل الحالك يتنزل القرآن الكريم ، وتقوم القصة القرآنية بدورها في ضرب الأمثال وبيان مآل الكافرين تثبيتا للرسول وللذين آمنوا معه .

ولقد ابرزت القصة القرآنية — والتي نزلت بمكة — أحداث الأمم السابقة حيث تعطي البديل الجزائي الذي يستحقه كفار قريش المعاندون لرسول الله والمُعذَّبون للقلة المؤمنة التي تعاني وتعذب في سبيل الاسلام والعقيدة .. إن القصة القرآنية تتلاءم وتتناسق مع المرحلة .. فتقوم برسم وتصوير النهايات الأئمة التي حاقت بأمم غابرة ، صدت عن دين الله — وهو المصير الذي سيؤول إليه كفار قريش .

(٣) سورة هود ٤٩ .

(٤) النبأ د. محمد عبدالله درواز ص ٤٢ .

وسورة الذاريات مكية تقوم على تشييد دعائم الإيمان ، وتوجيه الأبصار إلى قدرة الله الواحد القهار ، وبناء العقيدة الراسخة على أسس التقوى والإيمان . وبدأت السورة بالحديث عن الرياح والسحب والأمطار والسنن الجارية والملائكة المكلفين بتدبير شؤون الخلق .. ثم تحدثت عن كفار مكة وبينت مآلهم حيث يعرضون على نار جهنم . وتحدثت عن وعد الله للمؤمنين « من النعيم والكرامة في الدار الآخرة . وجاءت النقلة التالية متلائمة تماما مع جو السورة والظروف التي نزلت فيها والمرحلة الإعلامية الإسلامية التي كانت عليها الدعوة المحمدية ..

ولقد جاء الحديث بعد ذلك عن قصص الرسل وأممهم — وعن موقف الأمم الطاغية من الأنبياء وما حل بهم من العذاب والدمار — كقصص لوط « وقصة موسى ، وقصة الطغاة المتجبرين من قوم عاد وثمود وقوم نوح^(٧) .. وتلك القصص — كما قلت — إشارات سريعة للنهايات المؤلمة التي حاقت بالكفرة الطغاة .

وفي الآيات السابقة من القصة ربط بين قصة ابراهيم والرسل الذين بشروهم بغلام حلیم ، وبين نهاية وعذاب قوم مجرمين والمراد بهم قوم لوط ..

ولم يرد في الآيات اسم الرسول .. ذلك السياق لا يؤكد على شخص النبي هنا فثمة آيات كثيرات متوزعة على سورة القرآن تتحدث عن جهود نبي الله لوط في الدعوة إلى التوحيد ، والتمسك بمكارم الأخلاق والابتعاد عن فساد العقيدة وفساد المسلك الأخلاقي^(٨) .

(٧) صفوة التفاسير ج ٣ ص ٢٥٠ .

(٨) انظر سور الأعراف ، هود ، الحجر ، الشعراء ، النمل .

الذي يحدد مدى العلاقة الوثيقة التي تربط القصة بالمتلقي .. وتعطي إشارة دلالية على أن العمل القصصي قد بلغ الدرجة الفنية العالية في التناول والعرض والتأثير والتواصل .

وتهتم القصة القرآنية بالجانب التربوي وهي تعرض لنا شخصية ما في موقف ما . فالقرآن الكريم ليس كتابا في القصة يستمتع به الناس أو يتسلون بما ورد فيه من قصص . وإنما هو كتاب دعوة دينية في المقام الأول . وهو دستور المسلمين ومنهاجهم إلى حياة اسلامية صحيحة المنشأ والمعتقد ..

ولقد وعت القصة القرآنية هذا المفهوم وعيا تاما ، فجاءت الشخصيات طبيعية تدل افعالها وأقوالها على حقيقتها .. بلا اختلاف ، أو توليف ، أو تغيير ، مثلما تلجأ إليه القصة البشرية التي يقوم بإنشائها انسان ما .. إن تصرفات الشخصية الواحدة لا تتناقض مع الحقيقة المترسبة في أعماقها .

والقصص القرآني قصص يتناول بالأخبار والقصص والحوار أما ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم ، وأشخاصا نموذجيين يصنعون بمواقفهم أمثلة قصصية يضرب بها المثل في معان كريمة وقيم فاضلة — أو أخلاق فاسدة وقيم منحطة ..

وتحصر القصة القرآنية على تصوير الاشخاص تصويرا واضحا كأننا نراها ونشاهدها . وتصاحبها عبارات تصور درجات انفعالها وأنواعها .. «وكأن المعاني صور واضحة في الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصورا متحركا يصور الشخص في مشهد من مشاهد الذعر ما كان أكثر تصويرا من الألفاظ القرآنية .. والأساليب في تصويرها» (١٧)

(١٧) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٠٠ .

وكون النبي ﷺ على سنته في بعض الأشياء ، وفيها إنذار لقومه بما جرى من الضيف ومن انزال الحجارة على المذنبين المضلين^(١٠) .
 وتمضي الآيات في سورة الذاريات .. لتقص قصص الرسل مع الأمم الطاغية وفي كل ذلك .. تسلية للنبي وتثبيت لقلبه ، وتذكيره بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله المكرمين .
 قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan مبين فتولى بركنه وقال ساحرٌ أو مجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم .

وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . وما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم .

وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون .

فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين .

وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين .^(١١) ...

كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مجنون^(١٢)

في قصة موسى إشارة ، للنهاية الماحقة التي حلت بفرعون ، حيث عصى ربه وكذب بما جاء به موسى وادعى عليه كذباً وبهتاناً بأنه ساحر ، أو بأنه مجنون ، فنزل عليه وجنوده العذاب ، حيث هلك بالاغراق ، وهو مليم لأنه أتى بما يلام عليه ويعذب .. من أجله .. وهو الكفر والطغيان .

(١٠) صفوة التفاسير ج٣ ص ٢٥٥ .

(١١) سورة الذاريات آيات ٣٨ — ٤٦ (١٢) الذاريات آية ٥٢ .

الذي يحدد مدى العلاقة الوثيقة التي تربط القصة بالمتلقي .. وتعطي إشارة دلالية على أن العمل القصصي قد بلغ الدرجة الفنية العالية في التناول والعرض والتأثير والتواصل .

وتهتم القصة القرآنية بالجانب التربوي وهي تعرض لنا شخصية ما في موقف ما . فالقرآن الكريم ليس كتابا في القصة يستمتع به الناس أو يتسلون بما ورد فيه من قصص . وإنما هو كتاب دعوة دينية في المقام الأول . وهو دستور المسلمين ومناهجهم إلى حياة اسلامية صحيحة المنشأ والمعتقد ..

ولقد وعت القصة القرآنية هذا المفهوم وعيا تاما ، فجاءت الشخصيات طبيعية تدل افعالها وأقوالها على حقيقتها .. بلا اختلاف ، أو توليف ، أو تغيير ، مثلما تلجأ إليه القصة البشرية التي يقوم بإنشائها انسان ما .. إن تصرفات الشخصية الواحدة لا تتناقض مع الحقيقة المترسبة في أعماقها .

والقصص القرآني قصص يتناول بالأخبار والقصص والحوار أما ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم ، وأشخاصا نموذجيين يصنعون بمواقفهم أمثلة قصصية يضرب بها المثل في معان كريمة وقيم فاضلة — أو أخلاق فاسدة وقيم منحطة ..

وتحصر القصة القرآنية على تصوير الاشخاص تصويرا واضحا كأننا نراها ونشاهدها . وتصاحبها عبارات تصور درجات انفعالها وأنواعها .. «وكأن المعاني صور واضحة في الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصورا متحركا يصور الشخص في مشهد من مشاهد الذعر ما كان أكثر تصويرا من الألفاظ القرآنية .. والأساليب في تصويرها» (١٧)

(١٧) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٠٠ .

قصص الأمم السابقة ، فإن للكفار الذين كذبوا محمداً ﷺ نصيباً من العذاب الذي أدرك أسلافهم السابقين ، وأن العذاب واقع لا محالة فعليهم ألا يتعجلوه .

ولقد بينت الآية الصفة التي كانوا يلصقونها بالأنبياء والرسل ، وهي صفة السحر ، والجنون ، حيث تهدف الآية إلى وحدة الرسالة السماوية ، ووحدة الوسائل التي كان يتبعها الرسل مع أقوامهم ، ووحدة النعوت التي نعت بها الرسل والأنبياء ، وفي ذلك كله تسليية لمحمد ﷺ فلا تحزن يا محمد حين يصفك قومك بالسحر ، أو الجنون فلست بدعاً في ذلك بين إخوانك من الرسل السابقين ، فلقد قال المكذبون من قبل لرسولهم مايقوله قومك الضالون .

ولما كان القياس مثالا يورد نفسه إحياء ، فإن المصير يصبح واحداً ، والنهاية واحدة .

ولقد استخدمت قوى الكون في انزال العقاب على الأقوام الضالة ، والاشارة هنا توحى — عبر المعنى العميق للدلالة وسيلة الهلاك — أن الكون كله وحدة وأنه دائرة مكتملة ولما كان قطب الدائرة ومحور الكون هو الانسان = فإن أي خلل في نقطة الارتكاز تعني انهيارا ما ، أو تصدعاً في أركان البناء . والبناء الكوني كله لله ، هو الذي أقامه ، وهو الذي يأتمر بأمره ، وهو الذي يقوم بالعقاب أو الاصلاح ليعيد وحدته وانسجامه ، إن الكون تيار يلفظ مايشوبه ليبقى له صفاءه ، وانهماره . ومن ثم وضّح الفعل المباشر في إسناده إلى الله تعظيماً وتشريفاً . وتذكيراً ، بأن الله هو المصدر والصبـد والقادر ، ﴿نرسل عليهم حجارة﴾ ، ﴿فنبذناه في اليم﴾ ﴿ارسلنا عليهم الريح العقيم﴾ = ﴿ففتوا عن امر ربهم فأخذتهم الصاعقة﴾ .

إن التعبير يبين أن قوى الكون ، من يَمّ ، وريح ، وصاعقة ، وطين

الذي يحدد مدى العلاقة الوثيقة التي تربط القصة بالمتلقي .. وتعطي إشارة دلالية على أن العمل القصصي قد بلغ الدرجة الفنية العالية في التناول والعرض والتأثير والتواصل .

وتهتم القصة القرآنية بالجانب التربوي وهي تعرض لنا شخصية ما في موقف ما . فالقرآن الكريم ليس كتابا في القصة يستمتع به الناس أو يتسلون بما ورد فيه من قصص . وإنما هو كتاب دعوة دينية في المقام الأول . وهو دستور المسلمين ومنهاجهم إلى حياة اسلامية صحيحة المنشأ والمعتقد ..

ولقد وعت القصة القرآنية هذا المفهوم وعيا تاما ، فجاءت الشخصيات طبيعية تدل افعالها وأقوالها على حقيقتها .. بلا اختلاف ، أو توليف ، أو تغيير ، مثلما تلجأ إليه القصة البشرية التي يقوم بإنشائها انسان ما .. إن تصرفات الشخصية الواحدة لا تتناقض مع الحقيقة المترسبة في أعماقها .

والقصص القرآني قصص يتناول بالأخبار والقصص والحوار أما ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم ، وأشخاصا نموذجيين يصنعون بمواقفهم أمثلة قصصية يضرب بها المثل في معان كريمة وقيم فاضلة — أو أخلاق فاسدة وقيم منحطة ..

وتحصر القصة القرآنية على تصوير الاشخاص تصويرا واضحا كأننا نراها ونشاهدها . وتصاحبها عبارات تصور درجات انفعالها وأنواعها .. «وكأن المعاني صور واضحة في الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصورا متحركا يصور الشخص في مشهد من مشاهد الذعر ما كان أكثر تصويرا من الألفاظ القرآنية .. والأساليب في تصويرها» (١٧)

(١٧) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٠٠ .

القصصي ، والموقف . وكل تلك المقاصد يوحى بها النص ، والنص هو الذي يحدد أسلوب العرض ..

ولقد برزت الأحداث القصصية — كما سبق — في مجال الوعيد ، والانذار والتهديد .. ولقد تلائم ذلك مع بدايات الدعوة . حتى إذا تطورت الدعوة ، وجاهد الرسول وصحبه لابرار خصائص العقيدة الاسلامية ، وحاور قومه حول الأصول الرواسخ من العقيدة ، وواجه القوم كأقوى مايكون ، كان القرآن معه يسانده ويشد أزره ويثبت قلبه ويؤنسه ويسليه — بالعبوة والعظة — بقص أنباء الرسل والأقوام السابقين ، وما حاق بهم من عذاب لكفرهم وضلالهم .

ولقد أنقضت ثلاثة عشر عاما في تقرير قضية العقيدة .. وترسيخها في النفوس ولقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تنصدي الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة ، وأن يبدأ رسول الله ﷺ أولى خطواته في الدعوة ، بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله .

إن قصص القرآن التي نزلت بمكة قامت على الزجر والوعيد ، فأهل مكة عبدة أوثان ، طالت صحبتهم بها فقسست قلوبهم وراى عليهم الضلال والجحود فغلب على القصص في هذه الفترة (ذكر الأمم البائدة التي خالفت أمر الله ، وكذبت رسله ، فكان عاقبة أمرها وبالا وخسراً) (١٥) كما غلب عليه التنوع في عرض الصور أنواع العذاب مما يهز الوجدان ويقلل من العناد والاستكبار . ومن ثم برزت الأحداث بروزا واضحا وطغت على عناصر القصة الأخرى ، وجاءت سريعة خاطفة فوافقها وتنامى معها العرض القصصي من حيث

(١٥) مع القرآن الكريم دراسة مستلهمة ص ٢٤ . على النجد ناصف .

الابحار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردى في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرر للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...﴾ (١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعنى المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan ميين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ..﴾ (١٧)

(١٦) الحاقة ١ - ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ - ٤٠ .

وفي الآية تصريح بالصفة التي وصف بها موسى عليه السلام وهي صفة السحر والجنون . وجاء التعبير ملائماً للهدف من ايراد هذه الاشارة السريعة إلى موسى وقومه ، حيث انتقل النص من الوصف السردي الموجز إلى ابراز النهاية وهو الغرض من القصة .. نهاية العذاب الذي حاق بهم وأغرقهم في اليم .. والتعبير تولى بركنه يوحي بالتكبر والغرور والاستهزاء .. وجاء الفعل (قال) ليسجل هذه الحالة الشعورية التي سيطرت على فرعون وهو يسمع دعوة التوحيد من موسى . ولا شك ان الرسول ﷺ قد سمع تلك الصفات تتردد على مسامعه . ورأى نفس الحالات الشعورية التي تدمدم بالسخرية والغرور .. مما يؤكد ان القصة القرآنية وهي تشير إلى موسى وقومه ، تشير أيضاً إلى ما يحدث لمحمد مع قومه الضالين .. الحالة واحدة .. وإن طال الزمان وامتد .

قال تعالى :

﴿والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن

الهوى . إن هو إلا وحي يوحى﴾^(١٨)

بل إن أهل مكة قد نعتوه بالكذب تارة ، وبالجنون تارة أخرى ..

قال تعالى :

﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ..﴾^(١٩)

وقال تعالى :

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن

يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال

الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾^(٢٠)

(١٨) النجم ١ - ٤ .

(٢٠) سبأ ٤٣ .

(١٩) الفرقان بعض آية ٤ .

الابحار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردى في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرار للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...﴾ (١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعنى المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan ميين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ..﴾ (١٧)

(١٦) الحاقة ١ - ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ - ٤٠ .

أو بين المستكبرين والمستضعفين ، ويحكم الحوار تكرار كلمة قال ، أو قالوا .

والرسل يوجهون سير الحوار ويجددون أهدافه وغاياته ووسائله الوسيطة ومن ثم فإن اهتمام القصة يقل بشخصية الرسول في حين يتركز الاهتمام في الحج والأدلة والبراهيم الدامغة .

وهذا الجدل المشتجر في القصص إنما يوحى بموقف تبادلي ، يساعد على تعديل التيار الجارف من المعارضين ، ذلك أن الناس بدأوا يدخلون إلى الدين الاسلامي ، وبدأت الأشعة تزيل عن النفوس ركامها ولكن الذين يخشون على أنفسهم تشتت معارضتهم ، وتحتد خصومتهم ، ويلجأون فيما يلجأون إلى الحوار فلعل فيه حاجسا يمنع تلك الأفتدة عن المضي وراء نور الحق .

ولنضرب لذلك مثلاً قصصياً كنموذج لهذا الحوار الذي يستدعيه الموقف وتتطلبه مرحلة الدعوة الجديدة .

قال تعالى :

﴿فَأْتِيَٰ فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

ان أرسل معنا بني اسرائيل .

قال ألم نربك فينا وليداً . ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين .

قال فعلتها إذا وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين . وتلك نعمةً تمنها على أن عبدت بني اسرائيل .

قال فرعون وما رب العالمين .

قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين .

قال لمن حوله ألا تستمعون .

الابحار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردى في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرار للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...﴾ (١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعنى المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan ميين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ..﴾ (١٧)

(١٦) الحاقة ١ - ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ - ٤٠ .

هو موضوع السور المكية .. وهو العقيدة ، التي تتضمن الايمان بالله واحداً لا شريك له ، والخوف منه والايمان بالبعث ، والتصديق بالوحي .

.. والسورة توضح منذ البداية موقف المعاندين المكذبين ونهايتهم ، وفيها تسلية للرسول ، وطمأنة للمسلمين .

والقصة هي الخير الكبير الذي شغل جسم السورة .

ويغلب على القصص جو الإنذار والتكذيب والعذاب الذي يتبع التكذيب . والآيات الكريمة بذلك تكون قد وضحت الأمر لمشركي قريش والمكذبين برسول الله ﷺ . وأوحت بالمصير الذي ينتظر المكذبين .

والآيات التي أماننا إنما هي حلقة من حلقات قصة موسى عليه السلام (وهي حلقة مقسمة إلى مشاهد استعراضية بينها فجوات بمقدار مايسدل الستار على المشهد ، ثم يرفع عن المشهد الذي يليه ، وهي ظاهرة فنية ملحوظة في طريقة العرض القرآنية للقصة) (٢٣) وهذه المشاهد قد عرضت في سور سابقة ولاحقة لهذه السورة .. ولكنها حين تعرض تلائم الجانب الذي يناسب ذلك المشهد أو ذاك .. مع التركيز على جزئية معينة دون الأخرى .. حتى يتم التناسق في السياق وفي الموضوع .

.. فمواجهة موسى لفرعون والسحرة ، وغرق فرعون .. وردت في سور البقرة ، والأعراف ويونس والاسراء ، وطه وغيرها ، حيث توزعت قصة موسى وتنوعت مشاهداتها ..

ولكن هذه الحلقة من القصة وفي سورة الشعراء .. تختلف من

(٢٣) في ظلال القرآن ص ٢٥٨٨ جزء ١٩ مجلد (٥) .

الابحار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردى في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرار للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...﴾ (١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعنى المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan ميين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ..﴾ (١٧)

(١٦) الحاقة ١ - ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ - ٤٠ .

لقد قام الحوار بذلك كله ، فوضح لنا معالم الشخصية ، وبرز مجالات الاعتقاد وجسد مواقف الكبر والمعاندة .. وانطلق بالحدث من هواته الأولى إلى حدته وتأزمه .. ثم قام بعملية الكشف القلبي حين يبين تغيير المواقف وتبدل الحالات .. والأشخاص من الكفر إلى الايمان ..

وهذه القصة بدأت من الحوار وانتهت به .. فهي قصة دائرية .. مكتملة البناء الفني تماما ..

تبدأ القصة بحوار يوضح اختيار موسى رسولا إلى بني اسرائيل ، وتخوف موسى من عبء هذه الرسالة التي تحتاج إلى فضاحة في الاعلام عنها ومن ثم يطلب من ربه مؤازرة أخيه هارون ..

ثم يتلقى موسى أمر ربه بالدعوة « والذهاب إلى فرعون ، حاملا وهارون رسالة التوحيد إلى فرعون ، وطالبا منه خروج بني اسرائيل معه .

ويتضح الأمر .. فموسى لم يكن رسولا إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته . وإنما كان رسولا إليهم ليطلب إطلاق بني اسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون .. وأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ويعيد تربيتهم على دين التوحيد (٢٤) .

لقد بين الحوار الذي افتتحت به القصة ، مشهد التكليف .. وهو مشهد يتضح فيه الضعف البشري ، وحاجة الانسان — ولو كان رسولا — إلى المؤازرة والمساندة ، وهو إيجاد إرشادي إلى مؤازرة الله لرسوله محمد ﷺ ومساندته له « من حيث أن الرسل جميعا يغترفون من نبع واحد . وهو التوحيد .

(٢٤) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ١٩ ص ٢٥٩٠ .

الابحار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردى في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرار للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...﴾ (١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعنى المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan ميين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبدناهم في اليم وهو ملين ..﴾ (١٧)

(١٦) الحاقة ١ - ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ - ٤٠ .

حالة نفسية طارئة .. ولجأ لتحقيق ذلك إلى أمور منها — التذكير بنعم
فرعون على موسى .. والتذكير مصاغ في أسلوب إنشائي أدواته
الاستفهام المنفي ، الذي يحمل شحنات نفسية تدل على
التعجب .. والاستنكار .. وهو ما يمكن أن يوضح معنى التودد
الكامن في هذا الحوار المبدئي ..

ولعل ذلك التودد الكامن في نبرة الأداء .. أن يضعف من موقف
موسى .. ثم ينتقل السياق الحوارى من جانب فرعون إلى رفع التعجب
درجة أعلى .. فيوقعه على فعلته .. وهي مقتل المصري .. وذكر الأمر
بكلمة فعله .. لما تحملها من دلالة البشاعة .. وهو يقصد ذلك
قصداً .. فكيف تقتل بالأمس وتأتي اليوم داعياً إلى رب العالمين ..
أو لم يكن رب العالمين موجوداً بالأمس ؟ ..

إن دلالة هذا الجزء من الحوار لتكشف عن دراية واضحة
بالنفوس .. يتميز بها فرعون .. حاول أن يستثمرها لضعاف موقف
موسى ، أو إبعاده من معتقده الجديد ... ويدرك موسى ما وراء كلمات
فرعون .. فيرد عليه قائلاً في ثبات .. لا اهتزاز فيه ولا ضعف ،
ولا تأثير بما ذكر من ماضيه ..

ولقد فعلت تلك الفعلة حقيقة .. ولكنني فعلتها وأنا جاهل بها ..
أخذني «اندفاع العصية لقومي لا اندفاع العقيدة التي عرفتها اليوم بما
أعطاني ربي من الحكمة»^(٢٥) .. وفرت منكم لأنني أعلم طغيانك ..
ثم وهبني الله الحكمة .. ويواجه موسى فرعون في ثبات وقوة ويادله
الحجة بالحجة .. بل يدحض حجته الكبرى .. حجة التربية
والكفالة .. فيعلن موسى أن تربيته تلك لم تكن إلا نتيجة استبعاد

(٢٥) في ظلال القرآن . نفسه ص ٢٥٩١ .

الابحار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردى في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرار للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...﴾ (١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعنى المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan ميين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ..﴾ (١٧)

(١٦) الحاقة ١ - ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ - ٤٠ .

تعطي هذا المعنى ، وتعكس التصور الخاطيء الذي يحمله فرعون عن الله .. فهو يعتبره شيئاً ، ويتساءل أي شيء يكون هذا الرب الذي تدعي أنه رب العالمين .

ويواجه موسى ، فرعون في ثبات قائلاً إنه رب الكون كله ، من سمائه وأرضه وما بينهما ، (وهو المتصرف فيهما بالإحياء والاعدام) (٢٧) ..

وذلك الرد البرهاني يحمل سخرية دامغة لفرعون .. ولا بد أن فرعون قد أدرك تلك السخرية ، وهو الأديب الفطن ، إن موسى يسخر منه كما سخر هو منه .. ولكن سخرية موسى تترقق عبر المعنى .. الذي يتأكد بالمقارنة ، ووضع السياق القرآني . فحين وصف موسى الله جلّ وعلا بهذه الصفات المشتملة على الربوبية ، حمل ذلك الوصف .. «استصغار ما يدعيه فرعون مع بطلانه وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل .. والتفكير فيمن يكون ربه» (٢٨) .

ومن ثم جاء انفعاله انفعالا شرطيا ، تبعا لإدراكه ذلك الاستصغار الذي أشار إليه موسى عليه السلام . ولأن فرعون لم يقو على ضبط انفعاله ، فلقد برزت سخريته حادة مباشرة ، لتدل على الغضب العصبي الذي سيطر عليه .. ذلك الغضب الذي يدل على العجز أمام مواجهة البراهين العقلية البحتة .

ويلتفت فرعون إلى من حوله من قومه على سبيل الاستهزاء ويقول ، ألا تسمعون ما يقوله ، إنه لقول عجيب ، أسأله عن حقيقة الله ، فيجيب موسى بصفة من صفاته . ويهجم عليه موسى عليه السلام ..

(٢٧) صفة التفسير المجلد الثاني ص ٣٧٧ .

(٢٨) في ظلال القرآن المجلد الخامس الجزء التاسع عشر ص ٢٥٩٢ .

الابحار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردى في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرار للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...﴾ (١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعنى المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan ميين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ..﴾ (١٧)

(١٦) الحاقة ١ - ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ - ٤٠ .

ويعلو صوت فرعون لمن اتخذت إلها غيري فسألقينك في غياهب السجون . ولكن موسى عليه السلام يخرججه من ثورته في تلطف .. وهنا تأتي إلى جانب آخر من جوانب الحوار يستخدم وسيلة أخرى من وسائل الانسان الادراكية .. فالحوار مرّ في ثلاث مراحل :

حوار ذاتي استخدم فيه المتحاوران المشاعر ، والانفعالات ، التي صاحبت الحديث عن الماضي ، والتذكير بالنّعم ، أو بالتعبد . حوار عقلائي بحث ، كانت الحجج والبراهين هي الوسائط الداعية إليه .. وهو حوار جاء هادئاً عاقلاً داعياً من جانب موسى عليه السلام ، وعصبياً غاضباً من جانب فرعون .. والحوار المادي ، الحسي ، وهو جانب ثالث من جوانب الحوار الطويل الذي دار بين موسى وفرعون ..

فإذا كان مناط النوع الأول القلب ، ومناط الثاني « العقل » ، فإن مناط الثالث « هو العين » ، الأداة الادراكية المبصرة .. إنها تدعيم للعقل وترسيخ له .

يقول موسى ، أو لو جئت بك بشيء مبین ؟ .. أفأنت منزل عقابك بي وتهديدك لي بالسجن ؟! ويحار فرعون أمام القوم ، ويؤخذ بهذا التحدي السافر .. فلقد وضعه موسى في مأزق وانتهى الأمر أن يتراجع ، حتى لا يبدو خائفاً ، ويلجأ إلى نفس الوسيلة التي سبق وأن لجأ إليها ، وهي التشكيك في موسى وقواه العقلية — ومن ثم يوافق على مضض بعد إيجائه للقوم بأن موسى .. ليس هو بصاحب العقل الذي يعتد بحديثه .. (إن كنت من الصادقين)

ويرسم السرد القصصي الذي تخلل الحوار حكاية عن الفعل الذي تم ... يرسم صورة باهرة للموقف الثقيل الذي تتابعه العيون من كل

الابحار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردى في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرار للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...﴾ (١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعنى المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan ميين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ..﴾ (١٧)

(١٦) الحاقة ١ - ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ - ٤٠ .

المهارة ، والرغبة في المكائنة ، وتخويف فرعون لهم .. ولقد كان ذلك انقلاباً مفاجئاً له دوي القنابل ..

ولا شك أن هذا الانقلاب يتهدد فرعون ، ويتهدد ألوهيته ، وسيحقق هذا التهديد أمام الجماهير الحاشدة التي جمعها لتشهد الصراع بين موسى ، والسحرة .

يقول ابن كثير : وكان هذا من تسخير الله تعالى ليجتمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة ..

ثم يأتي حوار جانبي بين فرعون والسحرة . وهو حوار يدور بين حركتين انفعاليتين ، الحركة الانفعالية الأولى ، جاءت كرد فعل لما حدث .. وكان صاحبها فرعون . فعلا ، وغضب ، وهدد ، وأوعد ، والحركة الثانية جاءت كرد فعل لما حدث أيضاً .. ولكنها حركة قلبية مطمئنة واثقة ، وكان أصحابها هم السحرة .

ولقد وجه فرعون لهم تهديده في صيغة استنكار وتهديد .. ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾ .. إن ذلك ليس إيماناً ، وإنما هو استسلام .. ولذلك عبر فرعون بقوله (آمنتم له) للدلالة على الاستسلام كما يتصوره هو . ولم يقل «آمنتم به» لأن ذلك يعني الإيمان بحقيقة ما يدعو إليه موسى وهو ما يريد أن ينفيه بكل الحيل والوسائل .

ويصمد المؤمنون من السحرة لتهديد فرعون ، ويعلنون في رضى وطمأنينة بالألا ضرر علينا في وقوع ما هددتنا به ، فلا نبالي به فمآلنا إلى الله ، ورجاؤنا كبير أن يغفر الله لنا ذنوبنا ، لأننا كنا المبادرين بالإيمان وبتصديق موسى .

وإن هذا المشهد الجانبي بين فرعون والسحرة المؤمنين = ليملاً للقلب غنى ، وذخراً ، حين تنسكب الطمأنينة عليه ، فيبدو نعيم

الابحار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردى في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرار للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...﴾ (١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعنى المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan ميين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ..﴾ (١٧)

(١٦) الحاقة ١ - ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ - ٤٠ .

ومن ثم جماعة المسلمين ..

وبروز الشخصية في القصة يعني أن القصة قد وصلت إلى مرحلة من مراحل الحسم .. فبعد الانذار والحوار ، لم يعد إلا الفعل ، ومن ثم جاءت الشخصيات وهي تعمل ، وتواجه ، وتقوم بالفعل . مما يجعلنا نطمئن إلى القول بأن هذا النوع من القصص الديني إنما جاء تعبيراً صادقاً عن وقائع المرحلة الأخيرة من الدعوة ، وهي المواجهة .

ومن ثم فإن هذه المرحلة تتجسد في القصة القرآنية حيث تكون الشخصية هي المحور الرئيسي ، ويرفدها العنصران السابقان ، الأحداث ، والحوار .. وقد يتلازم الحوار مع الفعل ، كما رأينا في موقف موسى وفرعون .. ويكشف عن الأفكار والمبادئ المتصارعة ، والنتيجة عن المواجهة ، وكذا مردودها الانفعالي ..

وتبقى الشخصية في ساحة العمل الأدبي متفردة ، ومصارعة ، ومتحركة .. وقد لا يكون لها الوجود الأوحـد ، بل قد يشاركها في الفعل شخصيات ثانوية .. لابرار التناقض ، أو التوافق في الفعل .. ذلك أن مدار الفعل في هذه المرحلة يدور حول الصراع الأبدي بين الحق والباطل .. والناس يتوزعون بين هذين الجانبين منذ أن خلق الله البشر .

وتوضح مثل هذه المواقف القصصية : «أن القادة الرسل هم مصلر العقيدة ومنيع الايمان .. وانهم يتحملون عبء هذا العقيدة وعبء توصيلها إلى الناس .. إنهم أصحاب دعوة وليسوا أصحاب عقيدة فحسب . وهؤلاء القادة الرسل نفوذ لا يقوم على مغريات مادية .. بل هم قوم عمر الايمان قلوبهم يندفعون نحو غاياتهم»^(٣٣) .. في إصرار مكين ويتلذذون بما يصيبهم من آلام ..

(٣٣) من هدى القرآن . أمين الخولي انظر ص ٣٠ - ٤١ .

الابحار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردى في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرار للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...﴾ (١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعنى المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan ميين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ..﴾ (١٧)

(١٦) الحاقة ١ - ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ - ٤٠ .

عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴿٣٥﴾

في هاتين الآيتين برزت شخصية نوح عليه السلام قوية صامدة ، ثابتة صبوراً تتحمل الأذى ، والسخرية ، والصد ، ولقد ظل نوح يدعو قومه زمناً طويلاً — دون أن ييأس — إلى توحيد الله — وإفراده بالوحدانية . ولكنهم كذبوه فأهلكهم الله بالطوفان وهم مصرون على الكفر والضلال . ونجى الله نوحاً ومن ركب معه في السفينة . وجعلها الله آية للناس وعظة وعبرة لمن يقف موقفهم ويعاند عنادهم .

وفي قصة نوح تبدى ضخامة الجهد ، وضآلة الحصيلة . لقد وضحت القصة المغزى الحقيقي ، وهو خلاصة الجهد الجبار المبذول من نوح ، وذلك في إنجاز شديد .. بالرغم من أن القصة قد وردت في مواضع أخرى مفصلة ، غاية التفصيل .. وتتابع الآيات الكريمة لتسجل قصصاً أخرى ... قال تعالى :

﴿وابراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ (٣٦)

..... فما كان جواب قومه إلا ان قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿٣٧﴾

وهذا الموقف من القصة يوضح أن ابراهيم دعا قومه إلى عبادة الله

(٣٥) سورة العنكبوت آية ١٤ — ١٥ .

(٣٦) سورة العنكبوت آية ١٦ — ١٧ .

(٣٧) سورة العنكبوت آية ٢٤ .

وحده لا شريك له ، والاخلاص له ، وبين لهم أن عبادة الله خير لهم من عبادة الأوثان ، التي لا تنفع ولا تضر ، وإنما هي أصنام منحوتة من فعلهم وبأيديهم . ويبتغون منها الرزق وفي الحقيقة ما هي إلا حجارة صماء ، وإنما ابتغاء الرزق يكون بطلبه من الله تعالى فإنه القادر على ذلك . فهو وحده المتفرد بالعبادة والمختص بالشكر وإليه المرجع يوم القيامة ليجازي كل انسان بعمله .

وكان ردّ قومه على هذه الدعوة ان طالبوا بقتله أو حرقه بالنار وألقوه في النار ولكن الله نجاه منها حين جعلها برداً وسلاماً . وفي نجاة ابراهيم من النار ، وتحول النار إلى برد وسلام .. دليل على قدرة الله ، وبرهان على مؤازرته للمؤمنين من عباده .

... وفي هذا الجزء من القصة يتضح لنا الجهد الفائق الذي بذله ابراهيم لدعوة قومه إلى الحق والايمان والوحدانية .. وكان الجزاء ، الاحراق .. بالرغم من البراهين الكثيرة التي ساقها لهم .

فلقد تدرج معهم خطوة خطوة ، ولكن قلوبهم انغلقت على ضلالها .. ولقد بذل ابراهيم عليه السلام مجهودات فائقة وتحمل الكثير من ألوان التعذيب والمعاناة ، والصد والسخرية ، وكانت نتيجة تلك الدعوة في قومه ضئيلة للغاية لا تتناسب مع الجهاد الضخم الذي قام به ابراهيم عليه السلام .. ومع ذلك لم ييأس ..

وانتهت دعوة ابراهيم لقومه ، والمعجزة التي لا شك فيها انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط^(٣٨) إن هذين الموقعين وغيرهما كثير يتحدثان عن محنة الأنبياء وملاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله .

(٣٨) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧٣٢ .

(وفي قصص الأنبياء دروس من المحن والابتلاء ، تتمثل في ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ...) (٣٩)

والآيات التي وردت سابقاً من سورة العنكبوت ، وهي سورة مكية تتناول آياتها الأولى موضوع الجهاد ، وبيان أن الايمان ليس كلمة تقال وإنما هو الصبر على المكارِه والتكاليف ..

ويمضي بعد ذلك السياق ليستعرض قصص نوح وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء استعراضاً يصور ألواناً من العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الايمان (٤٠) ، ويكشف السياق الهدف من ذلك كله وهو بيان التوحيد الذي يوحد بين الدعوات جميعاً وبين دعوة محمد ﷺ ، فكلها من عند الله وكلها دعوة واحدة إلى الله .

ونموذج الشخصية البارزة في هذه المواقف نموذج فذ ، فهي شخصية عملية فاعلة ، عادلة ، تقتجم الصعوبات ولا تبالي . صامدة على الحق ولو كان مصيرها الموت أو الاحراق .. ولقد غلب على هذا الجو السرد القصصي والابحاز في العبارة وقلة الحوار ، لأن الهدف هو إبراز الفعل وتوضيح النهاية ، والوصول إلى الهدف مباشرة . وهو مدى مالمقيه الأنبياء في سبيل دعوة الأقسام إلى الايمان بالله .. وفي ذلك كله تثبيت لرسول الله وإيناس له ومؤازرة لموقفه .

(٣٩) صفوة التفاسير ج ٢ ص ٤٥٠ .

(٤٠) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧١٨ .

الابحار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردى في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرار للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...﴾ (١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعنى المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan ميين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ..﴾ (١٧)

(١٦) الحاقة ١ - ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ - ٤٠ .

الفصل الرابع

السُّرْدُ الْقَصْصِي

وحده لا شريك له ، والاخلاص له ، وبين لهم أن عبادة الله خير لهم من عبادة الأوثان ، التي لا تنفع ولا تضر ، وإنما هي أصنام منحوتة من فعلهم وبأيديهم . ويبتغون منها الرزق وفي الحقيقة ما هي إلا حجارة صماء ، وإنما ابتغاء الرزق يكون بطلبه من الله تعالى فإنه القادر على ذلك . فهو وحده المتفرد بالعبادة والمختص بالشكر وإليه المرجع يوم القيامة ليجازي كل انسان بعمله .

وكان ردّ قومه على هذه الدعوة ان طالبوا بقتله أو حرقه بالنار وألقوه في النار ولكن الله نجاه منها حين جعلها برداً وسلاماً . وفي نجاة ابراهيم من النار ، وتحول النار إلى برد وسلام .. دليل على قدرة الله ، وبرهان على مؤازرته للمؤمنين من عباده .

... وفي هذا الجزء من القصة يتضح لنا الجهد الفائق الذي بذله ابراهيم لدعوة قومه إلى الحق والايمان والوحدانية .. وكان الجزاء ، الاحراق .. بالرغم من البراهين الكثيرة التي ساقها لهم .

فلقد تدرج معهم خطوة خطوة ، ولكن قلوبهم انغلقت على ضلالها .. ولقد بذل ابراهيم عليه السلام مجهودات فائقة وتحمل الكثير من ألوان التعذيب والمعاناة ، والصد والسخرية ، وكانت نتيجة تلك الدعوة في قومه ضئيلة للغاية لا تتناسب مع الجهاد الضخم الذي قام به ابراهيم عليه السلام .. ومع ذلك لم ييأس ..

وانتهت دعوة ابراهيم لقومه ، والمعجزة التي لا شك فيها انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط^(٣٨) إن هذين الموقعين وغيرهما كثير يتحدثان عن محنة الأنبياء وملاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله .

(٣٨) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧٣٢ .

٤ - السرد القصصي

القصة في القرآن الكريم لها طبيعتها الخاصة وبنائها المتميز ، والذي يفرقها عن غيرها من القصص البشرية : انطلاقها من ان القرآن الكريم هو في المقام الأول كتاب دعوة دينية ، أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فهو كتاب عقيدة وشرعة ، ودستور كامل متكامل للحياة البشرية في مختلف جوانبها الروحية والمادية .

ومن ثم فإن القصة في القرآن وسيلة من الوسائل التي استخدمها القرآن لابرار الغرض الديني العام من تشريع ، وتوحيد ، وعقيدة ، وصياغة الانسان صياغة دينية سامية تسعى إلى بنائه بناءً متكاملًا ، يتناسق والمعتقد الديني ويتنامى مع المجتمع في تعدد علاقاته وتشابكها .

ولقد حملت القصة القرآنية خصائصها الفنية المتميزة التي بها يتحقق هذا الغرض الديني الكبير ، وهي خصائص تتسم بجمال فني أخاذ يؤثر في النفس ■ ويتغلغل في الوجدان ..

فالقصاص أحفل بالأسوة ، وأعمل في النفس ، وأبعث على الطمأنينة والرجاء . إنه أخف على السمع ، وأرعى للانتباه ، لا يأمر ولا ينهى ، ولكن يقص الأنباء ويصف الأحداث ، ويقرن العمل بعاقبته والجزاء عليه ■ في بيان رائع وتصوير صادق ، يجيش بالحياة والحركة ، فتسري الحكمة منه والموعظة إيجاءً وانفعالا ، لا طاعة لأمر ، ولا تأثراً بوعظ ، فينزل من أعماق النفس في قرار مكين ، حتى كأنه من نبع الوجدان وإشعاع الذات ^(١) .

ولقد وصلت القصة القرآنية إلى هذا التأثير الوجداني الفعال

(١) مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة . على النجدي ناصف . دار المعارف ص ٢٣ .

وحده لا شريك له ، والاخلاص له ، وبين لهم أن عبادة الله خير لهم من عبادة الأوثان ، التي لا تنفع ولا تضر ، وإنما هي أصنام منحوتة من فعلهم وبأيديهم . ويبتغون منها الرزق وفي الحقيقة ما هي إلا حجارة صماء ، وإنما ابتغاء الرزق يكون بطلبه من الله تعالى فإنه القادر على ذلك . فهو وحده المتفرد بالعبادة والمختص بالشكر وإليه المرجع يوم القيامة ليجازي كل انسان بعمله .

وكان ردّ قومه على هذه الدعوة ان طالبوا بقتله أو حرقه بالنار وألقوه في النار ولكن الله نجاه منها حين جعلها برداً وسلاماً . وفي نجاة ابراهيم من النار ، وتحول النار إلى برد وسلام .. دليل على قدرة الله ، وبرهان على مؤازرته للمؤمنين من عباده .

... وفي هذا الجزء من القصة يتضح لنا الجهد الفائق الذي بذله ابراهيم لدعوة قومه إلى الحق والايمان والوحدانية .. وكان الجزاء ، الاحراق .. بالرغم من البراهين الكثيرة التي ساقها لهم .

فلقد تدرج معهم خطوة خطوة ، ولكن قلوبهم انغلقت على ضلالها .. ولقد بذل ابراهيم عليه السلام مجهودات فائقة وتحمل الكثير من ألوان التعذيب والمعاناة ، والصد والسخرية ، وكانت نتيجة تلك الدعوة في قومه ضئيلة للغاية لا تتناسب مع الجهاد الضخم الذي قام به ابراهيم عليه السلام .. ومع ذلك لم ييأس ..

وانتهت دعوة ابراهيم لقومه ، والمعجزة التي لا شك فيها انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط^(٣٨) إن هذين الموقعين وغيرهما كثير يتحدثان عن محنة الأنبياء وملاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله .

(٣٨) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧٣٢ .

شخص ماهر ، يجلس أعلى من عمله ، يلقي شعاعاً من الضوء هنا أو يتحرك مرتدياً طاقة الإخفاء هناك ، وهو يتفاوض مع نفسه كمبدع للشخصية عن أحسن تأثير يمكن أن يحدثه^(٣) ولا شك أن سمو السارد وارتفاعه يمكنه من القبض على الحدث والشخصية ويساعده على التعرف على كنه الشخصية ومردوداتها على سرد الأحداث وتناميته ..

ومن ثم يتلاءم أسلوب العرض القرآني مع انتقاد الحدث المسرود فينحى تماماً كل ما يمت للحدث بصلة ، ومالا يتلاءم مع الهدف الديني ، ويخلص إلى التركيز حول محور الشخصية وجوهر الدعوة وردود الأفعال .

والقصة القرآنية قد التزمت «طريقة الرواية التي تؤذّنك دائماً بأنك تسمع أخباراً قد ذهب أشخاصها في التاريخ .. وأنها في هذا العرض إنما هي في بعث جديد»^(٤)

ولا شك ان ذلك يساهم في تصفية الأحداث التاريخية مما علق بها من تحريف وتشويه ذلك أن هذه الأخبار «تجيء من جهة عالية عالمة ، وسع علمها ما تحوي الأزمنة والأمكنة» وهو في ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب الغيبي في القصة القرآنية ..^(٥)

ومما يلاحظ على القصة القرآنية وهي تسرد الحدث ذلك التنقل السريع في تسلسل الأحداث والاعتماد على تتابع الأحداث تتابعا سريعاً لخلق جو مليء بالحركة وكأنما نحن أمام مسرح حافل بالنشاط في مشاهد حيوية متتابعة»^(٦) ولنأخذ نموذجاً لهذا التتابع في

(٣) أركان القصة : فورستر ص ١١٩ .

(٤) القصص القرآني في منطق ومفهومة . عبد الكريم الخطيب ١٩٦٤م ص ٨٣ .

(٥) نفسه ٨٤ .

(٦) القصص في الحديث النبوي الشريف ص ٢٤٥ .

الابحار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردى في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرار للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...﴾ (١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعنى المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسول وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan ميين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه و جنوده فنبذناهم في اليم وهو ملين ..﴾ (١٧)

(١٦) الحاقة ١ - ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ - ٤٠ .

حذف الفعل . قال : التي تتضمنها العبارة القرآنية «إني لكم نذير مبين» . وهذا الإيجاز يلقي سريعا بوظيفة الرسالة . وينتقل الجدل القولي الناتج عن فعل الدعوة — والذي هو حدث هزّ الثوابت من عقائد القوم — إلى تقرير شبهة وقرت في نفوس الجاهلين من البشر وهي شبهة ووجه بها الرسل جميعا .. وتضمنت العبارة القرآنية ﴿مانارك إلا بشراً مثلاً﴾ هذا المعنى ..

ويتوزع الجدل القولي — وهو يعكس الجدل الحديثي — إلى اتجاهين . الاتجاه الإيماني الذي يمثله نبي الله نوح ومن معه ، ولقد اقتضى هذا الاتجاه لإبرازه استخدام الأدلة العقلية لاستثارة مدركات الذهن الغائبة المطموسة لأدراك حقيقة الألوهية والوحدانية والتأكيد على أن نوحاً ما هو إلا رسول يبلغ الرسالة .. والاتجاه الثاني يتمثل في نفور الكفرة وصددهم عن سبيل الله وتعاليمهم حيث أخذتهم العزة بالاثم وقد يتسوا من مقارعة الحجة « فيأخذون بالحدث إلى منحى جديد ، منحى التحدي .

ولقد كان طبيعياً أن يأتي الحوار على لسان الشخصيات عبر لفظه ، قال ، قالوا ذلك أن القرآن يقوم بدور القصص على ألسنة المتحاورين فينقل ما يقال وماتعبر به الشخصيات من كلام مسبقاً به قال ، أو قالوا .. وغيرهما قلت ، قالت وهكذا وهو مرتبط فنياً بطبيعة السرد القرآني انطلاقاً من الهيمنة على الحدث والنص .. وعكس التكوين الدلالي للاتجاهين نموذج الداعية في سماحة القول ، والتلرع بالصبر وقدم درساً (في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد ، دون استرضاء لتصوراتهم ودون مملأة لهم ، مع المودة التي تنحني معها الرعوس) (٨)

(٨) الظلال ج ٤ ١٨٧٥ .

وحده لا شريك له ، والاخلاص له ، وبين لهم أن عبادة الله خير لهم من عبادة الأوثان ، التي لا تنفع ولا تضر ، وإنما هي أصنام منحوتة من فعلهم وبأيديهم . ويبتغون منها الرزق وفي الحقيقة ما هي إلا حجارة صماء ، وإنما ابتغاء الرزق يكون بطلبه من الله تعالى فإنه القادر على ذلك . فهو وحده المتفرد بالعبادة والمختص بالشكر وإليه المرجع يوم القيامة ليجازي كل انسان بعمله .

وكان ردّ قومه على هذه الدعوة ان طالبوا بقتله أو حرقه بالنار وألقوه في النار ولكن الله نجاه منها حين جعلها برداً وسلاماً . وفي نجاة ابراهيم من النار ، وتحول النار إلى برد وسلام .. دليل على قدرة الله ، وبرهان على مؤازرته للمؤمنين من عباده .

... وفي هذا الجزء من القصة يتضح لنا الجهد الفائق الذي بذله ابراهيم لدعوة قومه إلى الحق والايمان والوحدانية .. وكان الجزاء ، الاحراق .. بالرغم من البراهين الكثيرة التي ساقها لهم .

فلقد تدرج معهم خطوة خطوة ، ولكن قلوبهم انغلقت على ضلالها .. ولقد بذل ابراهيم عليه السلام مجهودات فائقة وتحمل الكثير من ألوان التعذيب والمعاناة ، والصد والسخرية ، وكانت نتيجة تلك الدعوة في قومه ضئيلة للغاية لا تتناسب مع الجهاد الضخم الذي قام به ابراهيم عليه السلام .. ومع ذلك لم ييأس ..

وانتهت دعوة ابراهيم لقومه ، والمعجزة التي لا شك فيها انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط^(٣٨) إن هذين الموقعين وغيرهما كثير يتحدثان عن محنة الأنبياء وملاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله .

(٣٨) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧٣٢ .

داخلي للحدث . فالأمر الموجه إلى نوح بصنع الفلك ، حدث يقتضي التهيؤ له ليتحقق هو الآخر حدثاً مرتبطاً به وهو الاعتزال ، اعتزاله عن القوم وترك الجدل .. هذا الانغماس في صنع السفينة ، والعمل فيها ليل نهار ، استوجب حدثاً آخر يرتبط به ، وهو حدث أدخل إلى الجانب النفسي ، حدث السخرية والقوم يرونه وقد انقلب نجاراً يصنع مركباً (إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر ، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر)^(١٠) .. ولأن السخرية جاءت من الخارج تهكماً موجعاً ، ولأنهم في الحقيقة لا يعلمون الحكمة من وراء صنع السفينة ، فقد جاء ردّ نوح عليهم ردّاً داخلياً .. ردّاً يحمل حديث النفس إلى النفس ، (ويكاد هذا الرد يكون نوعاً من تيار الوعي فهي إجابة قد يقولها نوح بصوت مسموع أو يقولها لنفسه)^(١١)

وتيار الوعي هذا لون من الأداء القصصي عرف مؤخراً في النتاج الروائي .. تصبح منه الأحداث مروية بحسب أهمية ورودها على ذهن الشخصية .. مما يفقد العمل أحيانا تماسكه ، ويؤدي إلى اختلاط أحداثه وأزماته ، ومن ثم فإنني أميل إلى أن نطلق عبارة حديث النفس على مدار في نفس نوح وهو يرد على سخرية القوم .. ذلك لأنها تصل بالحدث إلى نهايته الطبيعية في وضوح قثمة ساخر من نوح وهو يعمل كنجار ، ساخر جاهل بالحقيقة ، وثمة نبي يصنع السفينة ، ويرد على الساخرين في حديث نفس يحمل الوعيد والتهديد . (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) .. ولأن العبارة وعيد فاحتمال ورودها النفسي قائم وكذلك احتمال التلفظ بها قولاً مجهوراً قائم أيضاً ..

(١٠) الظلال ص ٤ ١٨٧٧ .

(١١) السرد القصصي . ثروت أبانلة ص ١٢ .

وحده لا شريك له ، والاخلاص له ، وبين لهم أن عبادة الله خير لهم من عبادة الأوثان ، التي لا تنفع ولا تضر ، وإنما هي أصنام منحوتة من فعلهم وبأيديهم . ويبتغون منها الرزق وفي الحقيقة ما هي إلا حجارة صماء ، وإنما ابتغاء الرزق يكون بطلبه من الله تعالى فإنه القادر على ذلك . فهو وحده المتفرد بالعبادة والمختص بالشكر وإليه المرجع يوم القيامة ليجازي كل انسان بعمله .

وكان ردّ قومه على هذه الدعوة ان طالبوا بقتله أو حرقه بالنار وألقوه في النار ولكن الله نجاه منها حين جعلها برداً وسلاماً . وفي نجاة ابراهيم من النار ، وتحول النار إلى برد وسلام .. دليل على قدرة الله ، وبرهان على مؤازرته للمؤمنين من عباده .

... وفي هذا الجزء من القصة يتضح لنا الجهد الفائق الذي بذله ابراهيم لدعوة قومه إلى الحق والايمان والوحدانية .. وكان الجزاء ، الاحراق .. بالرغم من البراهين الكثيرة التي ساقها لهم .

فلقد تدرج معهم خطوة خطوة ، ولكن قلوبهم انغلقت على ضلالها .. ولقد بذل ابراهيم عليه السلام مجهودات فائقة وتحمل الكثير من ألوان التعذيب والمعاناة ، والصد والسخرية ، وكانت نتيجة تلك الدعوة في قومه ضئيلة للغاية لا تتناسب مع الجهاد الضخم الذي قام به ابراهيم عليه السلام .. ومع ذلك لم ييأس ..

وانتهت دعوة ابراهيم لقومه ، والمعجزة التي لا شك فيها انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط^(٣٨) إن هذين الموقعين وغيرهما كثير يتحدثان عن محنة الأنبياء وملاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله .

(٣٨) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧٣٢ .

ابرار الغرض والغاية من الصنع .

ويتداخل مع الحدث الكوني حدث بشري سريع فيه الخوف وفيه الطمأنينة ، حدث أمر به نوح ففعله فأضحى حدثاً مشهوداً ، وهو يجمع في السفينة من كل زوجين اثنين .. وأهله ليحقق النجاة من الهلاك للبشرية ، وما فيها ..

وتمخر السفينة بمن فيها وما فيها وسط عباب الموج الهائل .. وهو حدث مادي مسرود عن طريق الوصف ، فالموج مترام ومتناقل وعالي علو الجبال ، يأخذ بمخاوف النفس وهذه المخاوف النفسية تنقلنا نقلة حديثة سريعة لتكمل سرد الموقف في جانبه النفسي ، حيث تحكي المفاجأة التي حدثت بين نوح وابنه الضال ، لتأتي نهاية العاصي عاصفة وسط الموج العاصف ، إنه سقوط النفس الآثمة (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) .

ويأتي المشهد إلى نهايته في نقلة سريعة في النص طويلة الزمن في التاريخ .. ولكن السرعة تلاءمت مع تلاحق الأحداث المسرودة لتصنع لنا مشهداً دائرياً يحكم قبضته على الكون والانسان بدءاً من جفاف الأرض التي تفجرت وانتهأ بانحسار المياه لتجف الأرض ويستقر من بداخل السفينة على الأرض لتبدأ رحلة الحياة من جديد .
قال تعالى :

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ . قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ أَعْظَمَكَ تُكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرَ لِي وَتَرْجِنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّ سَنَمْتَهُمْ ثُمَّ

وحده لا شريك له ، والاخلاص له ، وبين لهم أن عبادة الله خير لهم من عبادة الأوثان ، التي لا تنفع ولا تضر ، وإنما هي أصنام منحوتة من فعلهم وبأيديهم . ويبتغون منها الرزق وفي الحقيقة ما هي إلا حجارة صماء ، وإنما ابتغاء الرزق يكون بطلبه من الله تعالى فإنه القادر على ذلك . فهو وحده المتفرد بالعبادة والمختص بالشكر وإليه المرجع يوم القيامة ليجازي كل انسان بعمله .

وكان ردّ قومه على هذه الدعوة ان طالبوا بقتله أو حرقه بالنار وألقوه في النار ولكن الله نجاه منها حين جعلها برداً وسلاماً . وفي نجاة ابراهيم من النار ، وتحول النار إلى برد وسلام .. دليل على قدرة الله ، وبرهان على مؤازرته للمؤمنين من عباده .

... وفي هذا الجزء من القصة يتضح لنا الجهد الفائق الذي بذله ابراهيم لدعوة قومه إلى الحق والايمان والوحدانية .. وكان الجزاء ، الاحراق .. بالرغم من البراهين الكثيرة التي ساقها لهم .

فلقد تدرج معهم خطوة خطوة ، ولكن قلوبهم انغلقت على ضلالها .. ولقد بذل ابراهيم عليه السلام مجهودات فائقة وتحمل الكثير من ألوان التعذيب والمعاناة ، والصد والسخرية ، وكانت نتيجة تلك الدعوة في قومه ضئيلة للغاية لا تتناسب مع الجهاد الضخم الذي قام به ابراهيم عليه السلام .. ومع ذلك لم ييأس ..

وانتهت دعوة ابراهيم لقومه ، والمعجزة التي لا شك فيها انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط^(٣٨) إن هذين الموقعين وغيرهما كثير يتحدثان عن محنة الأنبياء وملاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله .

(٣٨) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧٣٢ .

.. ولا شك ان السياق الذي وردت فيه هذه الآيات الكريمة سياق سردي في جوهر السورة ككل ، وهي السورة التي أخلصت لحركة الأنبياء في دعوتهم إلى التوحيد .. حيث عرضت مواقف الرسل وهم يقومون بالدعوة ومواجهوا به من أعراض وتكذيب وسخرية واستهزاء وتحذ وغرور ، وصبر من الأنبياء وثقة بربهم ، وفي نصر الله لهم . ولقد سردت السورة قصة نوح ، كما أوردنا ، كما سردت قصة هود حين دعاهم إلى التوحيد فتكبر القوم وعاندوا ، وصبر النبي عليهم وحذرهم عذاب الله ولكنهم ظلوا سادرين في غيهم حتى حل عليهم العقاب . قال تعالى : ﴿ولما جاء أمرنا نحيينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونحييناهم من عذاب غليظ﴾

وفي قصة صالح يسرد القرآن دعوة النبي إلى قومه ثمود بعبادة الله ويذكرهم بنعمة عليهم ويصبر على عنادهم ويأتي لهم بالناقة آية كبرى لعلمهم يهتدون ولكنهم عتوا في الأرض فحق عليهم عذاب الله . قال تعالى :

﴿فلما جاء أمرنا نحيينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ أن ربك هو القوي العزيز﴾^(١٥)

وفي قصة شعيب يدعو النبي قومه إلى الإيمان بالله واحداً لا شريك له ، وينذ الوثنية التي وقعوا فيها ، ونصحهم بالوفاء بالكيل والميزان ومراعاة حقوق الله في خلقه ، مستخدماً الوسيلة العقلية التي تذكرهم بنعم الله عليهم والوسيلة الوجدانية التي تثير فيهم عواطف الرحمة أو الخوف ولكنهم كابروا فحاق بهم عذاب الله .. قال تعالى :

﴿ولما جاء أمرنا نحيينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا

وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين ﴿١٦﴾
وفي قصة لوط حيث دعا النبي إلى التوحيد وإلى التمسك بما
شرعه الله من أحكام والتخلي من الخلق السيء الذي يرتكبه من
دون خلق الله جميعاً ، حيث يأتون الذكران ، ولقد صبر النبي على
فساد خلقهم لعلهم يتبدون حتى وصل الأمر بهم أن يرغبوا في
ضيف لوط .. فكانت العاقبة التي حاقت بهم . قال تعالى : ﴿فلما
جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل
منضود﴾ (١٧) .

والسور القرآنية بهذا المنطق القرآني السردى عبر قصص أخبار
الأنبياء مع أقوامهم إنما تستعرض حركة التوحيد في تاريخ البشرية ،
لتقرر أنها جميعاً قامت على التوحيد والايان بالله وحده لا شريك
له ، وذكرت وسائل الأنبياء إلى أقوامهم للدعوة بالحسنى ، والترغيب
في الجنة والترهيب بالنار ، وإنذارهم بالوعيد الذي يستحقه الظالمون
المعاندون ، ثم تشابه النهايات حيث يأتي أمر الله فيحقيق العذاب
بالكافرين . وجاءت العبارة القرآنية ﴿فلما جاء أمرنا﴾ ، لتستقطب
حركة العذاب والعقاب الالهي الذي نزل بالأقوام على حين نجي الله
رسله ومن آمنوا معهم وهذا السرد القرآني لقصص الأنبياء فيه تسرية
لرسول الله ﷺ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما
فاصل الرسل أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به .. فضلاً عن التنويه
بدلالة هذه القصص ذاته على صدق الدعوة وصدق الوحي
والرسالة .. مما تأتى به الآيات الكريمة قال تعالى : ﴿تلك من أنباء
الغيب نوحينا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا
فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ (١٨) .

(١٨) هود ٤٩ .

(١٧) هود ٨٢ .

(١٦) هود ٩٤ .

(وهكذا نجد القصص في القرآن يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة ، شأنه شأن بقية السورة التي يجيء فيها ، ونجده في الوقت ذاته متناسقا مع سياق السورة وجوهرها وموضوعها ، متوافيا مع أهدافها ، مصدقا في عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وأبحاث تقريرية)^(١٩)

.. والسرد في قصة نوح التي وردت في سورة هود يختلف عن السرد الوارد في سورة نوح .. ففي سورة نوح يقف السرد عند وسيلة الابلاغ وطريقة المنهج في التبليغ وطرائقه الداعية إلى الايمان والاعتقاد السليم ..

.. ولقد ورد ذلك كمشهد جزئي في سورة هود ، مشهد من أحد المشاهد المتلاحقة التي وصلت إلى النهاية المحتومة وهو العذاب والطوفان .. ولكنه في سورة نوح مشهد ممتد ، ومفصل تفصيلا دقيقا ..

ولقد بدأت السورة بأمر التكليف ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ .. وينتقل السياق السردى مباشرة إلى موقف التبليغ .. هذا الموقف الذي خلصت له السورة كلها .. فيدعوهم إلى عبادة الله وتقواه وطاعة نبيه ، فإن استجابوا فإن الله يغفر الذنوب جميعا ويؤخر حسابهم إلى أجل مضروب في علم الله وهو اليوم الآخر .

ثم ينتقل السرد بعد ذلك إلى توضيح مافعله نوح من جهود مضنية تواصلت زماناً طويلا في دعوة قومه إلى الايمان .. وكان حصاد الدعوة أن استجاب نفر قليل للدعوة فآمنوا بما جاء به ، على حين أعرض الكثير وأصرروا على الأعراض ..

(١٩) الظلال مجلد (٤) ص ١٨٤٣ .

وحده لا شريك له ، والاخلاص له ، وبين لهم أن عبادة الله خير لهم من عبادة الأوثان ، التي لا تنفع ولا تضر ، وإنما هي أصنام منحوتة من فعلهم وبأيديهم . ويبتغون منها الرزق وفي الحقيقة ما هي إلا حجارة صماء ، وإنما ابتغاء الرزق يكون بطلبه من الله تعالى فإنه القادر على ذلك . فهو وحده المتفرد بالعبادة والمختص بالشكر وإليه المرجع يوم القيامة ليجازي كل انسان بعمله .

وكان ردّ قومه على هذه الدعوة ان طالبوا بقتله أو حرقه بالنار وألقوه في النار ولكن الله نجاه منها حين جعلها برداً وسلاماً . وفي نجاة ابراهيم من النار ، وتحول النار إلى برد وسلام .. دليل على قدرة الله ، وبرهان على مؤازرته للمؤمنين من عباده .

... وفي هذا الجزء من القصة يتضح لنا الجهد الفائق الذي بذله ابراهيم لدعوة قومه إلى الحق والايمان والوحدانية .. وكان الجزاء ، الاحراق .. بالرغم من البراهين الكثيرة التي ساقها لهم .

فلقد تدرج معهم خطوة خطوة ، ولكن قلوبهم انغلقت على ضلالها .. ولقد بذل ابراهيم عليه السلام مجهودات فائقة وتحمل الكثير من ألوان التعذيب والمعاناة ، والصد والسخرية ، وكانت نتيجة تلك الدعوة في قومه ضئيلة للغاية لا تتناسب مع الجهاد الضخم الذي قام به ابراهيم عليه السلام .. ومع ذلك لم ييأس ..

وانتهت دعوة ابراهيم لقومه ، والمعجزة التي لا شك فيها انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط^(٣٨) إن هذين الموقعين وغيرهما كثير يتحدثان عن محنة الأنبياء وملاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله .

(٣٨) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧٣٢ .

ولقد سلك نوح مع قومه لتوضيح دعوته شتى الأساليب في صبر بالغ ودأب متواصل ، ولكن كانت ثمرة هذا العذاب الطويل العصيان والنفور ، حيث سار القوم في ضلالهم المعهود فيهم ، فيتوجه إلى الله بالدعاء عليهم بالويل والثبور .

قال تعالى :

﴿قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً﴾ (٢٣) .

وقال تعالى :

﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ (٢٤) .

وفي هذه الآية إشارة لنوع الهلاك الذي حاق بقوم نوح وهو إغراقهم بالطوفان . ولكن النهاية هنا جاءت إشارة لأنه لم يكن الهدف من السرد هو تفصيل الحدث الطوفاني وإنما تفصيل الدعوة وإبراز وسائل التبليغ للقوم .. ولأشارة هنا (إجهاز سريع) للقوم وإبراز للنهاية في إشارة سريعة مقتضية تتلاءم مع السياق التفصيلي للدعوة وهكذا يرتبط السرد بمنهج السورة ككل فيأتي متلائماً مع السياق والهدف الديني الكامن وراءه .

وتأتي سورة يوسف نموذجاً كاملاً للسرد القصصي في القرآن ، والسورة وردت بعد سورة هود التي أوردت بعضاً من المواقف القصصية في سير الأنبياء والسابقين ، ولعل المغزى الديني في قصص الأنبياء في سورة هود هو مواجهة الرسل أقوامهم في الدعوة إلى التوحيد ثم ماحلّ بهم من عقاب وما أنعم به الله على رسله والمؤمنين وبيان أن

(٢٣) نوح ٢١ .

(٢٤) نوح ٢٥ .

وحده لا شريك له ، والاخلاص له ، وبين لهم أن عبادة الله خير لهم من عبادة الأوثان ، التي لا تنفع ولا تضر ، وإنما هي أصنام منحوتة من فعلهم وبأيديهم . ويبتغون منها الرزق وفي الحقيقة ما هي إلا حجارة صماء ، وإنما ابتغاء الرزق يكون بطلبه من الله تعالى فإنه القادر على ذلك . فهو وحده المتفرد بالعبادة والمختص بالشكر وإليه المرجع يوم القيامة ليجازي كل انسان بعمله .

وكان ردّ قومه على هذه الدعوة ان طالبوا بقتله أو حرقه بالنار وألقوه في النار ولكن الله نجاه منها حين جعلها برداً وسلاماً . وفي نجاة ابراهيم من النار ، وتحول النار إلى برد وسلام .. دليل على قدرة الله ، وبرهان على مؤازرته للمؤمنين من عباده .

... وفي هذا الجزء من القصة يتضح لنا الجهد الفائق الذي بذله ابراهيم لدعوة قومه إلى الحق والايمان والوحدانية .. وكان الجزاء ، الاحراق .. بالرغم من البراهين الكثيرة التي ساقها لهم .

فلقد تدرج معهم خطوة خطوة ، ولكن قلوبهم انغلقت على ضلالها .. ولقد بذل ابراهيم عليه السلام مجهودات فائقة وتحمل الكثير من ألوان التعذيب والمعاناة ، والصد والسخرية ، وكانت نتيجة تلك الدعوة في قومه ضئيلة للغاية لا تتناسب مع الجهاد الضخم الذي قام به ابراهيم عليه السلام .. ومع ذلك لم ييأس ..

وانتهت دعوة ابراهيم لقومه ، والمعجزة التي لا شك فيها انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط^(٣٨) إن هذين الموقعين وغيرهما كثير يتحدثان عن محنة الأنبياء وملاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله .

(٣٨) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧٣٢ .

ثمّة قصة يسردها القرآن قال تعالى : ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ (٢٧)

ويأتي التعقيب على القصة في قوله تعالى : ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾

وتبدأ أحداث القصة برؤيا رآها يوسف وهي مفتتح القصة ومفتاحها .

قال تعالى :

﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للانسان عدو مبين﴾ (٢٨) .

إنها رؤيا الغلام الذي رآها في الحلم ، وهي رؤيا ليست كرؤيا البشر ، ولكنها تحمل الرمز الكامل للقصة والذي ستفضي معانيه الأحداث المتداعية .. ومن ثم حمل التمهيد بالرؤيا قدراً كبيراً من التشويق . وهي سمة لازمة في القصة المبهرة التي تبقى على وجدان القارئ وتمسك بمشاعره .. خاصة أن الحلم يلعب دوراً بارزاً في مجريات الأحداث حيث تتابع — كجزء مكمل للشخصية — ليصل بين الموقف وليكشف عن طبيعة الشخصية المحورية شخصية يوسف الذي اجتباها الله وعلمه من تأويل الأحاديث .. ما يوحى بالاصطفاء للنبي ..

وإذا كان الحلم هنا تمهيداً فإنه في ثنايا القصة أحد عواملها

(٢٨) يوسف ٤ ، ٥ .

(٢٧) يوسف ٣ .

وحده لا شريك له ، والاخلاص له ، وبين لهم أن عبادة الله خير لهم من عبادة الأوثان ، التي لا تنفع ولا تضر ، وإنما هي أصنام منحوتة من فعلهم وبأيديهم . ويبتغون منها الرزق وفي الحقيقة ما هي إلا حجارة صماء ، وإنما ابتغاء الرزق يكون بطلبه من الله تعالى فإنه القادر على ذلك . فهو وحده المتفرد بالعبادة والمختص بالشكر وإليه المرجع يوم القيامة ليجازي كل انسان بعمله .

وكان ردّ قومه على هذه الدعوة ان طالبوا بقتله أو حرقه بالنار وألقوه في النار ولكن الله نجاه منها حين جعلها برداً وسلاماً . وفي نجاة ابراهيم من النار ، وتحول النار إلى برد وسلام .. دليل على قدرة الله ، وبرهان على مؤازرته للمؤمنين من عباده .

... وفي هذا الجزء من القصة يتضح لنا الجهد الفائق الذي بذله ابراهيم لدعوة قومه إلى الحق والايمان والوحدانية .. وكان الجزاء ، الاحراق .. بالرغم من البراهين الكثيرة التي ساقها لهم .

فلقد تدرج معهم خطوة خطوة ، ولكن قلوبهم انغلقت على ضلالها .. ولقد بذل ابراهيم عليه السلام مجهودات فائقة وتحمل الكثير من ألوان التعذيب والمعاناة ، والصد والسخرية ، وكانت نتيجة تلك الدعوة في قومه ضئيلة للغاية لا تتناسب مع الجهاد الضخم الذي قام به ابراهيم عليه السلام .. ومع ذلك لم ييأس ..

وانتهت دعوة ابراهيم لقومه ، والمعجزة التي لا شك فيها انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط^(٣٨) إن هذين الموقعين وغيرهما كثير يتحدثان عن محنة الأنبياء وملاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله .

(٣٨) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧٣٢ .

لقد انتقلت الرؤيا وتفسيرها بيوسف نقلة جديدة حيث مكن الله له في الأرض وأعطاه ما يستحقه من تكريم ..

ولقد وظفت الرؤيا توظيفاً فنياً بحيث جاءت حاملة التشويق لسرد الأحداث كلها ثم جاءت لتصل الأحداث ببعضها .. وفي كل وشت الرؤيا باصطفاء الله لنبيه ... ونعود إلى سرد الأحداث مرة أخرى لنقف على الخيط الفني الموصول بين المواقف والأحداث .

فلقد سارت الأحداث سيراً طبيعياً وفق السنين التي أرادها الله سبحانه .. وهي متسقة تماماً مع الوظيفة الفنية للقصّ والحكي (ذلك ان الطريقة الطبيعية لرواية القصة — كما نفهم في الأدب الانساني — أن نستهل العمل من البداية ثم نمضي إلى النهاية وذلك لكي نضفي على أحداث القصة التسلسل التاريخي المباشر كما حدث) (٣٢) وكانت سورة يوسف بما حكّت عن النبي خير نموذج يجب أن يقتدي به الكتاب في تناوهم للقصص التاريخي .

وبعد التمهيد الذي أحدثته الرؤيا ينطلق السرد القصصي ليكشف لنا عن مشاعر انسانية بغیضة ، تتمثل في الحقد والكراهية ، وهي مشاعر فطرية ، ولكنها تتلبس النفوس المريضة ..

فإخوة يوسف كتبوا في أنفسهم حقداً على يوسف لحبة يعقوب له وأنسه به . وهم بطبيعة الحال يجهلون كنه هذا الحب « فقلب يعقوب النبي يرى في ابنه يوسف مالم يره إخوته .. ولكن سيطرة الحقد جعلتهم يلجأون إلى المكيدة والتخلص من يوسف حتى يخلو وجه أبيهم لهم .. ووقعوا في سبيل ذلك في أكاذيب متتالية كشفها السياق القرآني على لسان يعقوب .. كما أنهم — وقد وقعوا تحت

(٣٢) عالم القصة . برناردي فوتو ترجمة د. مصطفى هدارة ص ٢٦٨ .

وحده لا شريك له ، والاخلاص له ، وبين لهم أن عبادة الله خير لهم من عبادة الأوثان ، التي لا تنفع ولا تضر ، وإنما هي أصنام منحوتة من فعلهم وبأيديهم . ويبتغون منها الرزق وفي الحقيقة ما هي إلا حجارة صماء ، وإنما ابتغاء الرزق يكون بطلبه من الله تعالى فإنه القادر على ذلك . فهو وحده المتفرد بالعبادة والمختص بالشكر وإليه المرجع يوم القيامة ليجازي كل انسان بعمله .

وكان ردّ قومه على هذه الدعوة ان طالبوا بقتله أو حرقه بالنار وألقوه في النار ولكن الله نجاه منها حين جعلها برداً وسلاماً . وفي نجاة ابراهيم من النار ، وتحول النار إلى برد وسلام .. دليل على قدرة الله ، وبرهان على مؤازرته للمؤمنين من عباده .

... وفي هذا الجزء من القصة يتضح لنا الجهد الفائق الذي بذله ابراهيم لدعوة قومه إلى الحق والايمان والوحدانية .. وكان الجزاء ، الاحراق .. بالرغم من البراهين الكثيرة التي ساقها لهم .

فلقد تدرج معهم خطوة خطوة ، ولكن قلوبهم انغلقت على ضلالها .. ولقد بذل ابراهيم عليه السلام مجهودات فائقة وتحمل الكثير من ألوان التعذيب والمعاناة ، والصد والسخرية ، وكانت نتيجة تلك الدعوة في قومه ضئيلة للغاية لا تتناسب مع الجهاد الضخم الذي قام به ابراهيم عليه السلام .. ومع ذلك لم ييأس ..

وانتهت دعوة ابراهيم لقومه ، والمعجزة التي لا شك فيها انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط^(٣٨) إن هذين الموقعين وغيرهما كثير يتحدثان عن محنة الأنبياء وملاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله .

(٣٨) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص ٢٧٣٢ .

وهم لا يدرون كنه الموقف أو حقيقته .

قال تعالى :

﴿قَالُوا إِن يَسْرِق فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَه مِن قَبْل فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي
نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٣٤)
ولقد تأثر يوسف بقول اخوته ومن ثم جاء الوصف «أنتم شر
مكانا ، ليدراً عن نفسه التهمة ، ويقرر ما تنطوي نفوس إخوته من
شر وفساد .

.. ونعود إلى السرد بعد تنفيذ المكيدة نقلة جديدة ..

قال تعالى :

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَاي هَذَا
غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بَضَاعَةً وَاللَّهِ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ
دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٣٥)

كان يوسف في الحب ، والحب مكان ، ولكنه ليس كأي
مكان ، إنه حب ماء يقع على طريق القوافل السيارة من القوم ..
فالمكان هنا مختار من بين الأماكن كلها وكأنما كان اتفاق إخوة
يوسف على جريمتهم منفذاً لفتح عهد جديد وقام المكان بتحقيق
ذلك ، ويركز الموقف هنا تركيزاً دقيقاً على حركتين حركة أدلاء الدلو ..
وحركة الصرخة المتعجبة .. وسكتت الآيات عن وصف يوسف في
الحب ، وعن وصف مشاعره وهو ينجو من ظلماته ، كما سكتت
تماماً عن القوم السيارة ..

وهذا الانتقاء والسكوت من الأسس الفنية في العرض القصصي لأنه
يعتبر اهمالا لكل ما يخرج عن محور الحدث «فكل هؤلاء
الأشخاص الذين التقطوا يوسف وباعوه نكرات مسرحية ولذلك لم

(٣٥) يوسف ١٩ - ٢٠ .

(٣٤) يوسف ٧٧ .

وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين ﴿١٦﴾
وفي قصة لوط حيث دعا النبي إلى التوحيد وإلى التمسك بما
شرعه الله من أحكام والتخلي من الخلق السيء الذي يرتكبه من
دون خلق الله جميعاً ، حيث يأتون الذكران ، ولقد صبر النبي على
فساد خلقهم لعلهم يتبدون حتى وصل الأمر بهم أن يرغبوا في
ضيف لوط .. فكانت العاقبة التي حاقت بهم . قال تعالى : ﴿فلما
جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل
منضود﴾ (١٧) .

والسور القرآنية بهذا المنطق القرآني السردى عبر قصص أخبار
الأنبياء مع أقوامهم إنما تستعرض حركة التوحيد في تاريخ البشرية ،
لتقرر أنها جميعاً قامت على التوحيد والايان بالله وحده لا شريك
له ، وذكرت وسائل الأنبياء إلى أقوامهم للدعوة بالحسنى ، والترغيب
في الجنة والترهيب بالنار ، وإنذارهم بالوعيد الذي يستحقه الظالمون
المعاندون ، ثم تشابه النهايات حيث يأتي أمر الله فيحقيق العذاب
بالكافرين . وجاءت العبارة القرآنية ﴿فلما جاء أمرنا﴾ ، لتستقطب
حركة العذاب والعقاب الالهي الذي نزل بالأقوام على حين نجي الله
رسله ومن آمنوا معهم وهذا السرد القرآني لقصص الأنبياء فيه تسرية
لرسول الله ﷺ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما
فاصل الرسل أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به .. فضلاً عن التنويه
بدلالة هذه القصص ذاته على صدق الدعوة وصدق الوحي
والرسالة .. مما تأتى به الآيات الكريمة قال تعالى : ﴿تلك من أنباء
الغيب نوحينا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا
فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ (١٨) .

(١٨) هود ٤٩ .

(١٧) هود ٨٢ .

(١٦) هود ٩٤ .

الكاملة في هذه المواقف (٣٧)

ومع صدق التعبير عن هذا النموذج البشري الخاص وعن هذه اللحظة الخاصة .

(فإن الأداء القرآني لم يتخل عن طابعه التنظيف مرة واحدة حتى وهو يصدر لحظة التعري النفسي والجسدي الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها) (٣٨)

ولنأخذ حركة الفعل في الحدث والمصحوب بالمفاجأة وكيد المرأة في تصرفها ..
قال تعالى :

﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لذا الباب﴾ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم (٣٩)

هذا هو نهاية موقف الاغراء الطويل .. وقد صور السباق القرآني هذا الموقف بكل ملابساته وانفعالاته دون أن يجعله معرضاً للاثارة أو التلذذ الشبقي . وصياغة الموقف السردية تكشف عن تنابعات في الحركة فالاستباق يقتضي حركة لايقافه . والحركة أحدثت تمزيقاً لثوب يوسف من الخلف . وكان هذا التمزيق بمثابة التمهيد لجو الحدث وشهادة الشاهد .. لانقاذ يوسف من المفاجأة التي ترصده بجوار

(٣٧) الظلال مجلد ٤ ص ١٩٥٢ .

(٣٨) نفسه ص ١٩٥٤ .

(٣٩) يوسف ٢٥ - ٢٨ .

وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين ﴿١٦﴾
وفي قصة لوط حيث دعا النبي إلى التوحيد وإلى التمسك بما
شرعه الله من أحكام والتخلي من الخلق السيء الذي يرتكبه من
دون خلق الله جميعاً ، حيث يأتون الذكران ، ولقد صبر النبي على
فساد خلقهم لعلهم يتبدون حتى وصل الأمر بهم أن يرغبوا في
ضيف لوط .. فكانت العاقبة التي حاقت بهم . قال تعالى : ﴿فلما
جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل
منضود﴾ (١٧) .

والسور القرآنية بهذا المنطق القرآني السردى عبر قصص أخبار
الأنبياء مع أقوامهم إنما تستعرض حركة التوحيد في تاريخ البشرية ،
لتقرر أنها جميعاً قامت على التوحيد والايان بالله وحده لا شريك
له ، وذكرت وسائل الأنبياء إلى أقوامهم للدعوة بالحسنى ، والترغيب
في الجنة والترهيب بالنار ، وإنذارهم بالوعيد الذي يستحقه الظالمون
المعاندون ، ثم تشابه النهايات حيث يأتي أمر الله فيحقيق العذاب
بالكافرين . وجاءت العبارة القرآنية ﴿فلما جاء أمرنا﴾ ، لتستقطب
حركة العذاب والعقاب الالهي الذي نزل بالأقوام على حين نجي الله
رسله ومن آمنوا معهم وهذا السرد القرآني لقصص الأنبياء فيه تسرية
لرسول الله ﷺ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما
فاصل الرسل أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به .. فضلاً عن التنويه
بدلالة هذه القصص ذاته على صدق الدعوة وصدق الوحي
والرسالة .. مما تأتى به الآيات الكريمة قال تعالى : ﴿تلك من أنباء
الغيب نوحينا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا
فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ (١٨) .

(١٨) هود ٤٩ .

(١٧) هود ٨٢ .

(١٦) هود ٩٤ .

لتكشف عن طبع الفطرة المؤمنة في حالة الركون إلى الفطرة نفسها ..
والتعبير تنزيه لله وإفضاء تصويري مندهش لروعة خلق الله .

ويرتبط بهذا المحور الحدتي في قصة يوسف مشهد آخر يكمل
هذا الموقف الطويل .. وهو المشهد الذي يوضح رغبة الملك في رؤية
يوسف هذا العليم بتأويل الأحاديث « ويتضمن المشهد كله براءة
يوسف مما ادعته عليه زوجة العزيز من تهم .

قال تعالى :

﴿وقال الملك ائتوني به ، فلمّا جاءه الرسول قال ارجع إلى
ربّك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن » إن ربّي بكيدهن
عليم . قال ما خطبكُنَّ إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن حاش لله
ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ أنا
راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أيّ لم أخه
بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي إنّ
النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إنّ ربّي غفور رحيم﴾ (٤١)

فيوسف في هذا المشهد المكمل لحركة المراودة — السبب في
سجنه — لا يتعجل الخروج .. فهو ليس بشراً عادياً يتلهف هذه
اللحظة « ولكنه يريد أن تتضح قصته التي من أجلها دخل السجن ،
كيف يسجن ، ثم يؤول الأحاديث بهذا الصفاء القلبي وتظل التهمة
عالقة !!

إنه لا يريد لمتناقض واحد أن يشوه صورته الحقّة . فلقد أدّبه ربه
فأحسن تأديبه ، ولقد سكبت هذه التربية في القلب سكينه وأمنأ ..
ومن ثم يجيء الرد اطمئناناً كاملاً ، فليبحث الملك أولاً عن النسوة
اللاتي قطعن أيديهن وليعرف منهن حقيقة ما حدث !!

(٤١) يوسف ٥٠ — ٥٣ .

وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين ﴿١٦﴾
وفي قصة لوط حيث دعا النبي إلى التوحيد وإلى التمسك بما
شرعه الله من أحكام والتخلي من الخلق السيء الذي يرتكبه من
دون خلق الله جميعاً ، حيث يأتون الذكران ، ولقد صبر النبي على
فساد خلقهم لعلهم يتبدون حتى وصل الأمر بهم أن يرغبوا في
ضيف لوط .. فكانت العاقبة التي حاقت بهم . قال تعالى : ﴿فلما
جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل
منضود﴾ (١٧) .

والسور القرآنية بهذا المنطق القرآني السردى عبر قصص أخبار
الأنبياء مع أقوامهم إنما تستعرض حركة التوحيد في تاريخ البشرية ،
لتقرر أنها جميعاً قامت على التوحيد والايان بالله وحده لا شريك
له ، وذكرت وسائل الأنبياء إلى أقوامهم للدعوة بالحسنى ، والترغيب
في الجنة والترهيب بالنار ، وإنذارهم بالوعيد الذي يستحقه الظالمون
المعاندون ، ثم تشابه النهايات حيث يأتي أمر الله فيحقيق العذاب
بالكافرين . وجاءت العبارة القرآنية ﴿فلما جاء أمرنا﴾ ، لتستقطب
حركة العذاب والعقاب الالهي الذي نزل بالأقوام على حين نجي الله
رسله ومن آمنوا معهم وهذا السرد القرآني لقصص الأنبياء فيه تسرية
لرسول الله ﷺ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما
فاصل الرسل أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به .. فضلاً عن التنويه
بدلالة هذه القصص ذاته على صدق الدعوة وصدق الوحي
والرسالة .. مما تأتى به الآيات الكريمة قال تعالى : ﴿تلك من أنباء
الغيب نوحينا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا
فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ (١٨) .

(١٨) هود ٤٩ .

(١٧) هود ٨٢ .

(١٦) هود ٩٤ .

التي مرت به والحن التي ووجه بها ، ولكنه مصطفى ، ومصنوع على عين الله ، ومن ثم كانت التربية الربانية التي رعته حتى مكنت له في الأرض بعد أن خرج من سجنه وثبتت براءته ، وأيقن الجميع أنه نبي صادق الوعد عالم بتأويل الحديث وأنه الصالح القادر على أن يقوم بتدبير أمور الحياة المعيشية والقابض بعون الله على مقاليدها ..

وهنا يتجه الحدث المسرود اتجاهاً آخر ، يركز فيه على النعم التي أنعم الله بها على يوسف بعد الحن الطوال التي صبر فيها وتجلد ولم ينس ربه فيها لحظة من الزمان ..

.. ولعل محنة السجن ظلماً كانت من الحن الشداد .. ومن ثم كان اتجاه الحدث المسرود نحو التمكين فرصة ربانية هيأها الله ليوسف .. تعويضاً عن محنة السجن والحن الأخرى . ويصور الحدث فعل الملك حين علم حقيقة الأمر .

قال تعالى :

﴿وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسى .. فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾^(٤٤)

لم يدع يوسف الفرصة تمر دون أن يحقق الهدف المرجو له . فهو الذي آتاه الله الحكمة والعلم . وهو الحصيف الفاهم للأمور كيف تجري حسب السنين المراد لها .. ومن ثم أسرع بالقول (اجعلني على خزائن الأرض) .. ولم يكن هناك وقت مناسب لاجابة هذا المطلب أفضل من هذا الوقت الذي تبدو الحاجة فيه إلى يوسف أكبر وأشد .

(٤٤) يوسف ٥٤ - ٥٦ .

وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين ﴿١٦﴾
وفي قصة لوط حيث دعا النبي إلى التوحيد وإلى التمسك بما
شرعه الله من أحكام والتخلي من الخلق السيء الذي يرتكبه من
دون خلق الله جميعاً ، حيث يأتون الذكران ، ولقد صبر النبي على
فساد خلقهم لعلهم يتبدون حتى وصل الأمر بهم أن يرغبوا في
ضيف لوط .. فكانت العاقبة التي حاقت بهم . قال تعالى : ﴿فلما
جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل
منضود﴾ (١٧) .

والسور القرآنية بهذا المنطق القرآني السردى عبر قصص أخبار
الأنبياء مع أقوامهم إنما تستعرض حركة التوحيد في تاريخ البشرية ،
لتقرر أنها جميعاً قامت على التوحيد والايان بالله وحده لا شريك
له ، وذكرت وسائل الأنبياء إلى أقوامهم للدعوة بالحسنى ، والترغيب
في الجنة والترهيب بالنار ، وإنذارهم بالوعيد الذي يستحقه الظالمون
المعاندون ، ثم تشابه النهايات حيث يأتي أمر الله فيحقيق العذاب
بالكافرين . وجاءت العبارة القرآنية ﴿فلما جاء أمرنا﴾ ، لتستقطب
حركة العذاب والعقاب الالهي الذي نزل بالأقوام على حين نجي الله
رسله ومن آمنوا معهم وهذا السرد القرآني لقصص الأنبياء فيه تسرية
لرسول الله ﷺ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما
فاصل الرسل أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به .. فضلاً عن التنويه
بدلالة هذه القصص ذاته على صدق الدعوة وصدق الوحي
والرسالة .. مما تأتى به الآيات الكريمة قال تعالى : ﴿تلك من أنباء
الغيب نوحينا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا
فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ (١٨) .

(١٨) هود ٤٩ .

(١٧) هود ٨٢ .

(١٦) هود ٩٤ .

لا تثيري الحدث أو تنمو به .. فلا شك أن هنا فجوة ، كغيرها من
الفجوات التي يمكن للخيال أن يتصور حدوثها طبقاً لانسحاق الحدث
وتداعيه ... ولا شك أن هذا المطلب جاء بعد أن آنس الأخوة من
أخيمهم الود الذي يعني اخباره عن الأحوال والأمور التي تخصهم
ككل — فجاء المطلب — وهو يدري — بعد أن اخبروه بما يدري !
ويعود الأخوة إلى أبيهم يعقوب ليجادلوا معه ...

ونقف على الحدث عبر حوار يكشف عن نط الشخصية .
قال تعالى :

﴿... ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا
أبانا مانبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد
كيل بعير ذلك كيل يسير﴾ (٤٦)

إن الشخصية هنا تمر بالحياة (تلك هي الشخصية المكتملة التي
لا تجد فيها اضطراباً فنياً .. أو تناقضاً في السلوك . إن الأخوة
الطامعين الذين تخلصوا من يوسف حتى يخلو لهم وجه أبيهم هم
أنفسهم الذين يحاولون أن يصحبوا أخاهم الثاني ليزداد لهم الكيل .
فهم غير راضين عما أصابوا) (٤٧)

وتمضي الأحداث لتحقيق في سردها مفاجأة كبيرة دارت حول
تحقيقها الأحداث السابقة التي دارت بين الأخوة ويوسف ، والأخوة
وأبيهم . فالأخوة يعودون طمعاً في المال وزيادة الميرة ، ويحتجز
يوسف أخاه ، ويلجأ إلى طريقة مشروعة حيث يجعل السقاية في رحل
أخيه .. ولا شك أن تلك الواقعة كان لها وقع المفاجأة .

(٤٦) يوسف ٦٥ .

(٤٧) السرد القصصي ص ٣٥ .

وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين ﴿١٦﴾
وفي قصة لوط حيث دعا النبي إلى التوحيد وإلى التمسك بما
شرعه الله من أحكام والتخلي من الخلق السيء الذي يرتكبه من
دون خلق الله جميعاً ، حيث يأتون الذكران ، ولقد صبر النبي على
فساد خلقهم لعلهم يتبدون حتى وصل الأمر بهم أن يرغبوا في
ضيف لوط .. فكانت العاقبة التي حاقت بهم . قال تعالى : ﴿فلما
جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل
منضود﴾ (١٧) .

والسور القرآنية بهذا المنطق القرآني السردى عبر قصص أخبار
الأنبياء مع أقوامهم إنما تستعرض حركة التوحيد في تاريخ البشرية ،
لتقرر أنها جميعاً قامت على التوحيد والايان بالله وحده لا شريك
له ، وذكرت وسائل الأنبياء إلى أقوامهم للدعوة بالحسنى ، والترغيب
في الجنة والترهيب بالنار ، وإنذارهم بالوعيد الذي يستحقه الظالمون
المعاندون ، ثم تشابه النهايات حيث يأتي أمر الله فيحقيق العذاب
بالكافرين . وجاءت العبارة القرآنية ﴿فلما جاء أمرنا﴾ ، لتستقطب
حركة العذاب والعقاب الالهي الذي نزل بالأقوام على حين نجي الله
رسله ومن آمنوا معهم وهذا السرد القرآني لقصص الأنبياء فيه تسرية
لرسول الله ﷺ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما
فاصل الرسل أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به .. فضلاً عن التنويه
بدلالة هذه القصص ذاته على صدق الدعوة وصدق الوحي
والرسالة .. مما تأتى به الآيات الكريمة قال تعالى : ﴿تلك من أنباء
الغيب نوحينا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا
فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ (١٨) .

(١٨) هود ٤٩ .

(١٧) هود ٨٢ .

(١٦) هود ٩٤ .

الأحداث وتتابعها .. ذلك أن هذه النقطة هي انطلاقة إلى إيجاد الحل وفك الحدث الأكبر ، إنها ستصبح لحظة التنوير التي تضيء الحدث وتكشف غوامضه ، وستره المحجوب .

ويسرع الحدث إلى حدة المواجهة والتعرف ، وفك الغموض .
فيدخل إخوة يوسف مصر مرة أخرى طلباً للقوت بعد مجاعة طالت ، وفي ضميرهم أن يستفسروا عما طلبه الأب منهم . وهم قد بدؤوا في ذلة لرداءة بضاعتهم ..

وفي ثنايا التعبير تتجلى معاني الاسترحام من الأخوة فضلاً عن الضيق الذي يبدو على ملامحهم ويظهر في حالاتهم وكذلك الانكسار الذي يتبدى في نبرة الذلة التي تشع من الألفاظ .
لقد كان الوصف الدقيق الموحى والمشع عن حال الأخوة هو مفتاح كشف الغموض الذي طال بالنسبة لهم ، وهو المدخل إلى ترقيق قلب يوسف . على إخوته ..

ويبدأ يوسف في الترفق بأخوته ويأخذهم بعيداً إلى الزمان الماضي — ليذكرهم بما فعلوه بيوسف ، وفجأة يدركون اللوهلة الأولى .. أن وراء هذا الاستدعاء التاريخي هدفاً مقصوداً ، بل لقد عرفوا المقصد وصاحوا عجباً في نبرة واحدة — لكأنك أنت يوسف . ويتناسى الاخوة في هذه اللحظة الانفعالية ما حدث ودار .. فلقد غفر يوسف لأخوته ..

قال تعالى :

﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا إنك لانت ، يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، إنه

وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين ﴿١٦﴾
وفي قصة لوط حيث دعا النبي إلى التوحيد وإلى التمسك بما
شرعه الله من أحكام والتخلي من الخلق السيء الذي يرتكبه من
دون خلق الله جميعاً ، حيث يأتون الذكران ، ولقد صبر النبي على
فساد خلقهم لعلهم يتبدون حتى وصل الأمر بهم أن يرغبوا في
ضيف لوط .. فكانت العاقبة التي حاقت بهم . قال تعالى : ﴿فلما
جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل
منضود﴾ (١٧) .

والسور القرآنية بهذا المنطق القرآني السردى عبر قصص أخبار
الأنبياء مع أقوامهم إنما تستعرض حركة التوحيد في تاريخ البشرية ،
لتقرر أنها جميعاً قامت على التوحيد والايان بالله وحده لا شريك
له ، وذكرت وسائل الأنبياء إلى أقوامهم للدعوة بالحسنى ، والترغيب
في الجنة والترهيب بالنار ، وإنذارهم بالوعيد الذي يستحقه الظالمون
المعاندون ، ثم تشابه النهايات حيث يأتي أمر الله فيحقيق العذاب
بالكافرين . وجاءت العبارة القرآنية ﴿فلما جاء أمرنا﴾ ، لتستقطب
حركة العذاب والعقاب الالهي الذي نزل بالأقوام على حين نجي الله
رسله ومن آمنوا معهم وهذا السرد القرآني لقصص الأنبياء فيه تسرية
لرسول الله ﷺ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما
فاصل الرسل أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به .. فضلاً عن التنويه
بدلالة هذه القصص ذاته على صدق الدعوة وصدق الوحي
والرسالة .. مما تأتى به الآيات الكريمة قال تعالى : ﴿تلك من أنباء
الغيب نوحينا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا
فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ (١٨) .

(١٨) هود ٤٩ .

(١٧) هود ٨٢ .

(١٦) هود ٩٤ .

الكبرى في القصة ولكنه حدث أفرز نتائج هامة حيث أسرع بالنهاية وفك الرمز الكبير في القصة .. رمز الرؤيا التي وردت في بداية السورة القرآنية الكريمة ..

وبعد أن عاد البصر إلى يعقوب الأب آن للجميع أن يمضوا إلى يوسف في مصر ..

قال تعالى :

﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾ (٥٦)

إننا أمام مشهد حافل بالانفعال والخفقات والدموع ، مشهد تحقق بعد يأس طال وألم نفس امتد ، وبعد امتحان تنوع وشوق أضنى القلوب .

ولكنه موقف النهاية الذي يرتبط بمطلع القصة ، إن القصة هنا تستدير فتعود نهايتها إلى أولها ، وتفسر النهاية البداية ، بحيث يصبح البدء والنهاية وحدة واحدة مضمرة بحدث نام ممتد .. لقد كانت البداية في ضمير الغيب . وأصبحت النهاية واقعاً حقاً ..

فلقد سجد الأب والأم والأخوة الأحد عشر ليوسف ، وانفك الغموض وكانت النهاية وخاتمة القصة ..

وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين ﴿١٦﴾
وفي قصة لوط حيث دعا النبي إلى التوحيد وإلى التمسك بما
شرعه الله من أحكام والتخلي من الخلق السيء الذي يرتكبه من
دون خلق الله جميعاً ، حيث يأتون الذكران ، ولقد صبر النبي على
فساد خلقهم لعلهم يتبدون حتى وصل الأمر بهم أن يرغبوا في
ضيف لوط .. فكانت العاقبة التي حاقت بهم . قال تعالى : ﴿فلما
جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل
منضود﴾ (١٧) .

والسور القرآنية بهذا المنطق القرآني السردى عبر قصص أخبار
الأنبياء مع أقوامهم إنما تستعرض حركة التوحيد في تاريخ البشرية ،
لتقرر أنها جميعاً قامت على التوحيد والايان بالله وحده لا شريك
له ، وذكرت وسائل الأنبياء إلى أقوامهم للدعوة بالحسنى ، والترغيب
في الجنة والترهيب بالنار ، وإنذارهم بالوعيد الذي يستحقه الظالمون
المعاندون ، ثم تشابه النهايات حيث يأتي أمر الله فيحقيق العذاب
بالكافرين . وجاءت العبارة القرآنية ﴿فلما جاء أمرنا﴾ ، لتستقطب
حركة العذاب والعقاب الالهي الذي نزل بالأقوام على حين نجي الله
رسله ومن آمنوا معهم وهذا السرد القرآني لقصص الأنبياء فيه تسرية
لرسول الله ﷺ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما
فاصل الرسل أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به .. فضلاً عن التنويه
بدلالة هذه القصص ذاته على صدق الدعوة وصدق الوحي
والرسالة .. مما تأتى به الآيات الكريمة قال تعالى : ﴿تلك من أنباء
الغيب نوحينا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا
فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ (١٨) .

(١٨) هود ٤٩ .

(١٧) هود ٨٢ .

(١٦) هود ٩٤ .

الباحث أن قصة يوسف «من حيث البناء القصصي أجود قصة في القرآن ولعله من أجل هذا عدها القرآن من أحسن القصص ..» (٥٩) ووصف القصة بأنها من أجود تعبير يتنافى مع كمال القرآن ، فالقرآن ليس فيه قصة جيدة وأخرى غير جيدة ، فكله كلام الله موحى به إلى نبيه محمد ﷺ . والقصة تمثل مساحة واضحة في القرآن الكريم ، وهي تقوم بدورها في ترسيخ العقيدة ، وإعطاء العظة والعبرة بضرب المثل وبذكر الأقسام السابقين ومواقفهم من الرسل وما حاق بهم ، كإشارة موجهة إلى مشركي مكة الذين يصلون عن الدعوة ويؤذون الرسول والمؤمنين ، كما أن فيها الوعد بالنصر للرسول وللمسلمين كما نصر أولو العزم من الرسل السابقين .. فضلا عن الإيناس للرسول وتسرية عما فيه وتدعيم للموقف ودعوة إلى الصبر .

فعبارة الباحث جاوزت الصواب .. ذلك أن قصة يوسف جاءت على غير المنهج القصصي للقرآن وليس معنى هذا أنها أجوده .. فالقرآن كلام الله .. لا تعلوا فيه سورة على أخرى ولا تفضل آية آية أخرى . وإنما الأمر أن قصة يوسف جاءت دفعة واحدة ، مكتملة البناء والحلقات منذ البداية إلى النهاية ، فهي لا تحتاج إلى إعادة حلقاتها أو تكرارها — فتوالي الأحداث يتواصل منذ الرؤية التي تتحقق شيئا فشيئا ، والتنسيق الفني لا يتم إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها .. فضلا عن أن أفراد حلقة من حلقاتها كما يحدث في قصص الأنبياء الآخرين لا يحقق شيئا من هذا التنسيق ومن هذا الاكتمال .. من هنا كان لقصة يوسف هذه الميزة البنائية .. ولكن ذلك لا يعني أن توصف بمقاله الباحث لأن ذلك يعتبر تزيدا في القول وخروجاً به إلى ما لا يليق موضوعاً وفناً .

(٥٩) الفن القصصي في القرآن . د. محمد أحمد خلف الله ص ٢٥٢ .

وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين ﴿١٦﴾
وفي قصة لوط حيث دعا النبي إلى التوحيد وإلى التمسك بما
شرعه الله من أحكام والتخلي من الخلق السيء الذي يرتكبه من
دون خلق الله جميعاً ، حيث يأتون الذكران ، ولقد صبر النبي على
فساد خلقهم لعلهم يتبدون حتى وصل الأمر بهم أن يرغبوا في
ضيف لوط .. فكانت العاقبة التي حاقت بهم . قال تعالى : ﴿فلما
جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل
منضود﴾ (١٧) .

والسور القرآنية بهذا المنطق القرآني السردى عبر قصص أخبار
الأنبياء مع أقوامهم إنما تستعرض حركة التوحيد في تاريخ البشرية ،
لتقرر أنها جميعاً قامت على التوحيد والايان بالله وحده لا شريك
له ، وذكرت وسائل الأنبياء إلى أقوامهم للدعوة بالحسنى ، والترغيب
في الجنة والترهيب بالنار ، وإنذارهم بالوعيد الذي يستحقه الظالمون
المعاندون ، ثم تشابه النهايات حيث يأتي أمر الله فيحقيق العذاب
بالكافرين . وجاءت العبارة القرآنية ﴿فلما جاء أمرنا﴾ ، لتستقطب
حركة العذاب والعقاب الالهي الذي نزل بالأقوام على حين نجي الله
رسله ومن آمنوا معهم وهذا السرد القرآني لقصص الأنبياء فيه تسرية
لرسول الله ﷺ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما
فاصل الرسل أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به .. فضلاً عن التنويه
بدلالة هذه القصص ذاته على صدق الدعوة وصدق الوحي
والرسالة .. مما تأتى به الآيات الكريمة قال تعالى : ﴿تلك من أنباء
الغيب نوحينا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا
فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ (١٨) .

(١٨) هود ٤٩ .

(١٧) هود ٨٢ .

(١٦) هود ٩٤ .

وَمِمْ نَفْسِر الْخُرُوجِ مِنْهُ ! انْفَسِرُوا بِالْصَّدْفَةِ الْبَحْتَةِ ! الصَّدْفَةُ الَّتِي
جَعَلَتْ الْأُخُوَّةَ يَحْقِدُونَ عَلَيْهِ ! وَالسَّيَّارَةَ يَنْتَشِلُونَهُ مِنَ الْجَبِّ لِمُرُورِهِمْ
عَلَيْهِ بِحَثًّا عَنْ الْمَاءِ ! وَلِمَاذَا هَذَا الْجَبُّ بِالذَّاتِ ؟ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِتَوْجِيهِ
إِلَهِي مَرْسُومٍ مِنْ أَجْلِ اكْتِمَالِ خِيْطِ الْأَحْدَاثِ وَتَتَابُعِهِ ؟ ثُمَّ كَيْفَ نَفْسِرُ
تَأْوِيلَ الْأَحْدَاثِ وَصَدَقَ تَأْوِيلُهَا ؟ وَمِمْ نَفْسِرُ إِبْصَارَ يَعْقُوبَ النَّبِيَّ بِإِلْقَاءِ
قَمِيصِ يُوْسُفَ الَّذِي تَتَبَعَتْ مِنْهُ رَائِحَتُهُ ! أَهْوَ مَثِيرٌ شَرْطِي يَحْدُثُ الْهَزَّةَ
فِي النَّفْسِ ؟ وَهَلْ فِي مَكْنَةِ الْإِنْسَانِ الْعَادِي أَنْ يَقُومَ بِهَذَا الْعَمَلِ لِإِبْرَاءِ
الْمَرِيضِ ؟ أَلَيْسَ هَذَا مَا كَانَ يَفْعَلُهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِرَادَةِ اللَّهِ ؟
.. وَمَنْ ثُمَّ فَإِنْ التَّعْبِيرُ بِقَوْلِهِ عَنْ ارْتِدَادِ الْبَصَرِ بِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مِنْ
خَصَائِصِ الْأَنْبِيَاءِ .. التَّعْبِيرُ يُوْحِي بِالتَّهْوِينِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ . وَهَذَا
لَا يَلِيْقُ بِمَكَانَةِ الْأَنْبِيَاءِ . وَلَا بِاسْتِقْرَاءِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ . ثُمَّ بِمِمْ نَعْلِلُ هَذَا
الترتيب التتابعي في انسجام فني تام وتوقيت زمني محسوب ؟ فَإِنْ لَمْ
يَكُنْ ذَلِكَ كُلُّهُ وَفَقْ سُنَنٌ كَوْنِيَّةٌ وَرَعَايَةٌ خَاصَّةٌ .. فِمِمْ تَكُونُ ؟

المراجع

- ١ — القرآن الكريم .
- ٢ — تفصيل آيات القرآن الكريم . نقل محمد فؤاد عبدالباقى .
- ٣ — الكشف . الزمخشري .
- ٤ — صفوة التفاسير . محمد على الصابوني .
- ٥ — في ظلال القرآن — سيد قطب .
- ٦ — صحيح البخاري — الامام البخاري .
- ٧ — جمع الفوائد — جمع : محمد بن محمد بن سليمان الروداني .
- ٨ — قصص الأنبياء — ابن كثير .
- ٩ — قصص القرآن — محمد أحمد جاد المولى .
- ١٠ — التصوير الفني في القرآن — سيد قطب .
- ١١ — مشاهد القيامة في القرآن — سيد قطب .
- ١٢ — خصائص التصور الاسلامي — سيد قطب .
- ١٣ — مع القرآن الكريم . دراسة مستلهمة — على النجدي ناصف .
- ١٤ — القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ج٢ — أحمد محمد جمال .
- ١٥ — القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ج٣ — أحمد محمد جمال .
- ١٦ — القصص الرمزي في القرآن — أحمد محمد جمال .
- ١٧ — منهج الفن الاسلامي — محمد قطب .
- ١٨ — القرآن المعجزة الكبرى — محمد أبوزهرة .
- ١٩ — التبيان في علوم القرآن — محمد على الصابوني .
- ٢٠ — التعبير الفني في القرآن — د. بكري شيخ أمين .
- ٢١ — سيكلوجية القصة في القرآن — د. التهامي نقرة .
- ٢٢ — قصص وعبر — محمد المجذوب .
- ٢٣ — القصص في الحديث النبوي — محمد بن حسن الحرير .
- ٢٤ — الاسلام والمذاهب الحديثة — فتحي رضوان .
- ٢٥ — القصة القرآنية — فتحي رضوان .
- ٢٦ — السرد القصصي في القرآن — ثروت أباطة .

- ٢٧— المعاني الثانية في الأسلوب القرآني — د. فتحي عامر .
- ٢٨— دراسات نفسية وتأملات قرآنية — د. عزت الطويل .
- ٢٩— الانسان في القرآن الكريم — عبدالكريم الخطيب .
- ٣٠— علم النفس — د. جميل صليبا .
- ٣١— الصورة الأدبية — د. مصطفى سويف .
- ٣٢— المذاهب الأدبية — د. نبيل راغب .
- ٣٣— نظرات في قصص القرآن — محمد قطب عبدالعال .
- ٣٤— مجلة (منبر الاسلام) — مايو ١٩٨٦ .
- ٣٥— الفن القصصي في القرآن الكريم — محمد أحمد خلف الله ط ١ .
- ٣٦— معلمة الاسلام — أنور الجندى .
- ٣٧— منهج التربية الاسلامية — محمد قطب .
- ٣٨— القصة في التربية — عبدالعزيز عبدالمجيد .
- ٣٩— بناء الرواية — عبدالفتاح عثمان .
- ٤٠— نقد الرواية — نبيلة ابراهيم .
- ٤١— القصة القصيرة نظريا وتطبيقاً — يوسف الشاروني .
- ٤٢— قصص القرآن الكريم في منظوقه ومفهومه — عبدالكريم الخطيب .
- ٤٣— أركان القصة — فورستر .

محتويات الكتاب

الموضوعات	الصفحة
★ المقدمة	٥
★ الفصل الأول : ١ — مدخل إلى الدراسة	٧
— بين القصة القرآنية والقصة البشرية .	
— قيم فنية وجمالية .	
★ الفصل الثاني : ٢ — القصة والجدل	٧٧
★ الفصل الثالث : ٣ — مواءمة القصة لمراحل	
الأحداث ولمواقف الدعوة	١٠١
★ الفصل الرابع : ٤ — السرد القصصي	١٣٩
★ المراجع	١٧٩